www.ibtesamh.com/vb

نسخة معالجة
وصفحات فردية

أخبار اليوم
قطاع الثقافة

رحمة الله بين الرجاء واليأس

islamicfiles.net

www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

د. مبروك عطية

www.ibtesamh.com/vb

التحويل لصفحات
فردية والمعالجة
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذى كتب على نفسه الرحمة ، والصلاة والسلام على مَنْ أرسله الله تعالى للعالمين رحمة ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وآمن بنوره ورضى بسنته.. إلى يوم العذاب والرحمة.

وبعد:

فهذا كتاب موضوعه (رحمة الله بين الرجاء واليأس)

رأيت أن الكتابة فيه من الضرورة بمكان ، حيث إنه ما من إنسان إلا وهو فقير إلى الرحمة لاسيما رحمة الله - عز وجل - التى هى مصدر كل رحمة ومنبع كل خير وقد ورد فى البحر المحيط لأبى حيان أن دعاء أهل الكهف يغنى عن جميع الدعاء ، وهو ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)﴾ [الكهف]

وذلك لأن الرحمة تشمل رحمة الدنيا والآخرة وأن كل نعمة تأتى من الله - عز وجل - إنما هى رحمة منه بعباده ، وقد وسعت رحمة ربنا - تعالى - كل شيء ، ونحن بلا شك فى زمان غلب فيه اليأس ، للمفارقة الشاسعة بين مستويات الناس ، وكثرة الفساد التى

www.ibtesamh.com/vb

تؤدى بالناس خصوصاً العوام إلى أن الحياة صارت هكذا ، من كان يملك حصل على كل شيء ، ومن لا يملك لا حظ له من شيء.

وكأن الحياة صارت برمتها أسباباً فقط ، دون تطلع إلى ما وراء الأسباب من قوة المسبب سبحانه وتعالى الذى يدرك برحمته بعباده الصادقين فى رجاء تلك الرحمة لأن الراجى رحمة ربه ما بين صادق وكاذب ، فالكاذب إما أن يكون راجياً لها باللسان فقط ، وإما أن يكون راجياً لها من باب التواكل ، وإما أن يكون يائساً قلبه معرباً بلسانه عمَّا ليس فى قلبه من لا يتهمه الناس بالكفر والإلحاد .

وقد رأيت صوراً من اليأس من رحمة الله - تعالى - فيها استبطاء بعض الناس تلك الرحمة ، وقد حكم رسول الله ﷺ. فى هذه المسألة حكماً مفصلاً فبين أن الله - عز وجل - يستجيب لعبده ما لم يعجل ، أى ما لم يقل: دعوت فلم يستجب لى وكثير منا يقول هذه العبارة ، وقد أدخل نفسه فى زمرة اليائسين من رحمة الله - عز وجل - حيث إنه لا يستجيب الله له ، وأىّ إنسان أشقى وأبعد عن رحمة الله من عبد يدعو ربه ولا يستجيب له.

وقد رأيت أمة ممّن أسميهم هواة الدعاة يُبعدون الناس عن رحمة الله - عز وجل - حيث يصورون لهم الدين نافلة ، إن لم يقوموا بها فليسوا ممن تنالهم رحمة الله - عز وجل - ، والعلم بالدين على خلاف ذلك فالله - عز وجل - يدعو عباده إلى رحمته عن طريق عزم الأمور ، ثم تأتى النوافل للقادر عليها مزيد تقرب إليه ، ودخول فى واسع رحمته ، وقد جاء فى الحديث القدسى: « مَنْ تَقرب إليّ

www.ibtesamh.com/vb

شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن جاءني يمشي جئته هرولة »[1] ، فالله عز وجل أشد طلباً للعبد يرجو رحمته من العبد نفسه ، فما أعظم رحمة الله عز وجل ، وما أوسعها ، وقد دخل فيها:

* رجل سقى كلباً.
* وبغيّ سقت كلباً .
* ورجل رفع شوكة عن طريق الناس.
* ورجل بلَّغ مقالة بعد أن وعاها.
* ورجل بلغ عن رسول الله ﷺ آية.
* ورجل شهد شهادة الحق.
* ورجل قال كلمة طيبة.
* ورجل غرس غرساً أو زرع زرعاً.
* ورجل نأى بنفسه عن الكبائر.
* ورجل سكت عن الشر وأمسك عنه.
* ورجل متصدق بنصف تمرة.
* ورجل رعى أبناءه ولم يضيعهم.
* ورجل حفظ لجاره حقه.

(١) أخرجه بهذا اللفظ البزار في مسنده (٩٢١٨) وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٦٦٠١) بنحوه ، وإسناده صحيح ، وكذا الإمام أحمد في مسنده (٩٣٤٠) ، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

www.ibtesamh.com/vb

* ورجل أدى الأمانة إلى من ائتمنه.
* ورجل أعان ذا حاجة.
* ورجل أكرم ضيفه.
* ورجل نام فاحتسب عند الله نومته ، حيث نوى عملاً صالحاً يرضى الله إثر نومه ، ولم ينو شراً.
* ورجل أنظر معسراً ، أو تصدق عليه.
* ورجل تجاوز عن معسر فى بيع.
* ورجل قلبه معلق بالمساجد.
* ورجل أعرض عن اللغو.
* ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.
* ورجل تعارَّ من الليل فذكر الله
* ورجل صلى ركعتين فى جوف الليل.
* ورجل نفَّس عن مسلم كربة من كربات الدنيا.
* ورجل ستر مسلماً فستره الله .
* ورجل فعل ذنباً بالليل فستره الله فلم يفضح نفسه ، وقد روى البخارى فى صحيحه « كل أمتى معافى إلاّ المجاهرين »[1].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٩) عن أبى هريرة وتمامه : وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم. يصبح وقد ستره الله فيقول: يافلان عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه.

www.ibtesamh.com/vb

مئات بل ألوف من صور التعرُّض لرحمة الله - عز وجل.

والله عز وجل يقول فى آية الأعراف: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾ [الأعراف] لذا كان من صدق راجى رحمة الله - تعالى - أن يكون محسناً غير مسيء ، وقد رأيت أن يشتمل هذا الكتاب على أربعة فصول:

١ - رحمة الله بين الرجاء واليأس.

٢ - ومظاهر رحمة الله تعالى.

٣ - وظرفية الرحمة.

٤ - والسبيل إلى رحمة الله تعالى.

وأراها تحقق الغاية من وضعه وتأليفه وإن كان الموضوع فى حاجة إلى مجلدات ، لكن رُبَّ إشارة تغنى عن عبارة ، ورب موجز يكفى عن مطول لمن وفقه الله - عز وجل -، هذا وأرجو الله - تعالى - أن ينفعنا به وأن يدخلنا جميعاً فى رحمته ، إنه أهل التقوى وأهل المغفرة ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. مبروك عطية

www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الأول

رحمة الله بين الرجاء واليأس
ما أقرب رحمة الله

www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb

رحمة الله بين الرجاء واليأس

ما أقرب رحمة الله :

يقول الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾ [الأعراف] والإحسان كما جاء فى الصحيح من حديث جبريل - عليه السلام - والذى رواه عمر رضى الله عنه - « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] وليس معناه ذلك التصور الضيق الذى يجرى على ألسنة الناس خصوصاً السائلين من إعطاء المساكين والمحتاجين بعض النقود ، ولا تتصور عباده من كافر، فهو غير مكلف بالتكاليف الشرعية التي تطلق عليها عبادة على التغليب ، فالمحسن لابد أن يكون مؤمناً صحيح العقيدة عاملاً الصالحات ، مراقباً لله - عز وجل - فى جميع أحواله والمحسن يرجو رحمة ربه ، والكافر يائس من رحمة الله قال الله فيه ﴿أُولَئِكَ

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٨) حديث البخارى من رواية عمر بن الخطاب ، أما مسلم فقد رواه عنه أيضاً وكذا عن أبى هريرة رضى الله عنهما وهوحديث جبريل.

www.ibtesamh.com/vb

يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي.. (٢٣) ﴾ [العنكبوت] ؛ لأنهم لم يؤمنوا وقد جاءتهم الآيات بينات ، وجاءتهم رسلهم بالمعجزات

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا.. (١٣) ﴾ [يونس] ، وقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا.. (٢٥)﴾ [الأنعام] فاليأس من إيمانهم معناه مؤكد ، وهم بذلك الفهم يائسون من رحمة الله واليائس من الشيء ، لا يناله ، ولا يصل إليه ، ومادام هؤلاء قد يئسوا من الإيمان ، وكفروا بآيات الله ولقائه وظنوا أن حياتهم بعد الموت مستحيلة ، قالوا كما حكى لنا القرآن الكريم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا.. (٣٧)﴾ [المؤمنون]

فهم يائسون من رحمة الله ، مبلسون فى عذاب الآخرة الذى سعوا إليه بذنوبهم ، وقد قالوا:﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠)﴾ [الملك]

وفى خاتمة سورة الممتحنة يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ(١٣)﴾ [الممتحنة]

هؤلاء أنكروا البعث ، ويئسوا من قيام أصحاب القبور مرة أخرى ، بل إن بعضهم ممن اُنتزعت الرحمة من قلبه هرع إلى مقبرة ، وجاء بشيء من عظام ميت ، وقال : يا محمد أتظن أن هذه سوف تُنشر مرة أخرى؟

فنزل قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ

www.ibtesamh.com/vb

خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ [يس]

إن المرء إذا نظر إلى شيء يبدو ظاهره مستحيلاً وتفكَّر في أصله كيف كان عدماً ثم صار موجوداً ذهب ذلك المستحيل. ولذا قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ.. (٧٨)﴾ [يس]

ولو تذكر الكافر خلقه ، كيف كان ماء في صلب أبيه واستقر في رحم أمه ، ولو شاء الله لأراقه ، لكنه جعله نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ثم كسا العظام لحماً ، ثم أنشأه خلقاً آخر: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

وقد دخل شابان على رسول الله ﷺ فوجداه يعمل عملاً ، فأعاناه ، فقال لهما: لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رءوسكما فإن الله خلق الإنسان قطعة حمراء ، ليس عليه قشر ثم كساه ورزقه[1].

فانظر إلى هذا اللب وهذا الفكر ، كيف يهدى الإنسان في حيرة

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤١٦٥) ، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده (١٥٨٩٣) وأبو القاسم البغوي في معجم الصحابة (٥٤٤) والطبراني في معجمه الكبير (٣٤٠١) بلفظ: « لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ثم يرزقه الله عز وجل » والشابان هما حبة وسواء ابنا خالد.

www.ibtesamh.com/vb

الواقع ، واضطراب الظاهر وبدو اليأس من فك السبب ، الذى لايسفر عن خير فيما ترى ، لقد قال الله - عز وجل -: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ.. (٧٩)﴾ [يس] أى : فلم العجب ؟ فلا تيأس من الرزق ما دمت حيًّا؛ لأنك كنت قطعة لحم حمراء ، وصرت بشراً سوياً ناطقاً ، سميعاً ، بصيراً ، فالذى كساك من عرى ، وأنبت شعرك من عدم ، وجعل لك سمعاً وبصراً وقلباً هو الله ربك ، لا إله إلاّ هو فكيف تيأس من رزق غد ، ومَنْ رزقك بالأمس موجود وخزائنه بيده ، أشفق عليك ؛ فلم يُملكها أحداً حتى لا يبخل عليك: ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)﴾ [الإسراء] ولو أُعطى كل سائل مسألته ما نقص ذلك من ملكه شيئاً.

شيء من التذكر يجعلك تستدعى رحمة الله -عز وجل- التى وسعت كل شيء ، فلا تخف أن تضيق ، مثال خوفك من أن يصرف صراف عملك ما لديه من أموال قبل أن تصل إليه ، مع أنك تعلم أن اسمك موجود فى الكشف ، وأن راتبك محسوب حسابه ، اطمئن إلى أن رحمة الله -عز وجل- تسعك وتسع جميع من فى السماوات والأرض ، وما لا نعلم من ملك الله الواسع: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.. (١٥٦)﴾ [الأعراف]

لقد شعر الأعرابى بشيء من السرور حين رأى فرج الله فى دين جاء به محمد ، يدعو إلى الرحمة والجنة ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً ، فهتف قائلاً:

www.ibtesamh.com/vb

اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحدا ، فقال له ﷺ « لقد حجّرت واسعاً »[1] أى ضيَّقتَ رحمة الله وهى واسعة ؛ فهى تسعك وتسع مَنْ دعوت له معك وهو أول داخل فيها بفضل ربه عليه ﷺ. وتسع الدنيا جميعاً.

رحمة الله بالأنبياء وغيرهم:

ولطالما ذكر القرآن الكريم رحمة الله - عز وجل - بالأنبياء وغيرهم ، حتى لا يتوهم أحد أنها خاصة بهم دون سواهم وإليك هذه الآيات من سورة واحدة ، هى سورة هود حيث قال الله تعالى:

١ - فى الآية ٤٨: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ.. (٤٨)﴾ [هود]

قال : عليك وعلى أمم ممن معك ، وقد نجّى الله نوحاً وأصحاب السفينة ، الذين آمنوا معه وما آمن معه إلاّ قليل.

٢ - وفى الآية ٦٦ يقول الله - عز وجل -: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦)﴾ [هود] قال: نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وسوف يأتى فى فصل مظاهر رحمة الله تعالى أن النجاة رحمة.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٠) والطبرانى فى مسند الشاميين (٣٠٣٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

www.ibtesamh.com/vb

٣ - وفى الآية ٨١ يقول تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾ [هود]

قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ.. (٨١)﴾ [هود] أى مَنْ آمن معك ولم تكن امرأته من أهله: لأنها خانت كفراً لا فرجاً ، فدمر الله عليها مع الكافرين نعوذ بالله من صبح إلى عذاب.

٤ - وفى الآية ٩٤: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤)﴾ [هود] قال تعالى: ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا.. (٩٤)﴾ [هود]

٥ - وفى الآية ١١٦ يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ.. (١١٦)﴾ [هود] قال تعالى: ﴿أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ.. (١١٦)﴾ [هود]

- وفى سورة يوسف الآية ٢٢ يقول الله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.. (٢٢)﴾ [يوسف]

قال تعالى ﴿آتَيْنَاهُ.. (٢٢)﴾ [يوسف] وقال ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.. (٢٢)﴾ [يوسف] أى نؤتيهم حكماً وعلماً ، فمن أحسن فقد تعرض لرحمة الله -عز وجل- فلا يقولنّ أحد: هذا نبى ، أو هذا ولى.

www.ibtesamh.com/vb

- وفيها الآية ١٠٨ يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾ [يوسف]
قال: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي.. (١٠٨)﴾ [يوسف]
- وفى سورة الملك الآية ٢٩ يقول الله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨)﴾ [الملك]

فانظر كيف قال: ﴿أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا.. (٢٨)﴾ [الملك] فجمع فى الحالتين مَنْ معه، إنها المعية التى نسأل الله تعالى. أن يحققها لنا على رحمة منه لا على عذاب .

مَنْ الاستفهامية ورحمة الله :

فى القرآن الكريم منبع الرحمة، ومنهج المؤمن الذى يبتغيها وقفات مع رحمة الله - عز وجل - جاءت عن طريق الاستفهام الذى يحمل الإنسان على الإقرار بأنه لا رحمة إلاّ من الله -عز وجل-، ومن ذلك قول الله -تعالى- فى سورة الملك الآية ٣٠: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]

وختم هذه الآية للسورة بهذه الطريقة يجعلك تعود إلى أول آية فيها، حيث يقول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [الملك] لو ربطت بين البداية والخاتمة أيقنت أنه لا أحد غير الله يأتينا بماء إن أصبح ماؤنا غوراً، أى بعيداً، أى ذهب بعد حضور وانعدم بعد وجود، ومَنْ بيده الملك على كل شيء قدير حاشاه أن

www.ibtesamh.com/vb

يكون كالذى بيده الملك وهو عاجز من التصرف فى شيء منه ، إن أراد منعته زوجته أو ولده ، أو عجزه ولكن تعالى الله الذى لم يكن له شريك فى ملكه ولم يتخذ ولداً ولا صاحبة.

وتأمل قوله تعالى ﴿ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا.. (٣٠)﴾ [الملك] فنسب الغور أسنده إلى الماء ، مع أنه تعالى الذى يذهب به ، كما قال: ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)﴾ [المؤمنون] ، فمن رحمته أسند الغور إليه رحمة منه ، حيث إن هناك فرقاً بين قولك لولدك: « إنْ أخذت منك هذا المال فمن يعطيك غيره » وبين قولك: « إن ضاع منك هذا المال فمن يعطيك غيره » فالثانى يدل على رحمة منك به ، أما الأول ففيه شيء من القهر له ، نعوذ بالله من السلب بعد العطاء ، ولك أن تتصور هذا المعنى فى ضوء هذا المثال ولله المثل الأعلى.

لو أن رجلاً يملك ضاحية ، وقد أصدر أمراً لرجاله أن يمنعوك ماء فيها ، حيث طلبته فى بيت من بيوتها فمنعه عنك أهله ، فرُحْت تقول : وما يغنينى ! أطلبه عند الجيران فهم أكرم منهم ، فمن عليك أن يعطيك ، لا أحد ؛ لأن الماء فى كل مكان فى تلك الضيعة ملك للرجل ، وقد أصدر أمره لجميع من فيها ، فلا أحد يعطيك.

وكذلك الحال هنا فى فهم هذه الآية: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك]؟ إن لم يُؤتنا من بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

١ - وفى سورة المؤمنون الآيات ٨٤ - ٨٩ يقول عز وجل: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

www.ibtesamh.com/vb

(٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧)﴾ [المؤمنون] والتعبير بـ «مَنْ» الاستفهامية فى المواضع الثلاثة مع ما خُتمت به الآيات يحتاج منا إلى شيء من التدبُّر ، فالله تعالى بدأ بالأرض ، ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) ﴾ [المؤمنون] والجواب لله ، والختام: أفلا تتذكرون ، كأن الأرض تنسى ، وسر النسيان فيها ما يتوهمه الناس من ملكية الناس لها ، هذه أرض فلان ، وهذه ملك فلان ، وتلك عمارة فلان ، ومنتزه فلان ، وفى خضم فلان وعلان يحدث النسيان ، لذلك قال: أفلا تتذكرون ! أى تذكروا أن الأرض ومن فيها لله.

ويعين على هذا التذكر القرآنى الكريم أيضاً ، بما يشهد به الواقع ، يقول الله - عز وجل -: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥)﴾ [إبراهيم]

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)﴾ [إبراهيم]

وقال جل شأنه: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾ [الأعراف] وأنت تسأل: مَنْ صاحب هذه العمارة؟ فيُقال

www.ibtesamh.com/vb

لك: فلان فاسأل: ومَنْ كان يملكها قبله؟ يقال لك: فلان فاسَأل: ومن يملكها بعده؟ يقال لك: ورثته ، حتى تسأل: ومن يرث الأرض ومَنْ عليها آخر الأمر؟ والجواب: الله ولذلك كان معنى أن الإنسان خليفة ، يخلف بعضه بعضاً لا خليفة عن الله ؛ لأن الله لا يغيب ، حتى يخلفه أحد . وقد ذكر المفسرون هذا الوجه ، لكن لم يلتفت إليه كثير من الناس ، فالله عز وجل حين قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.. (٣٠)﴾ [البقرة] معناه: جاعلٌ فيها من يخلف بعضه بعضاً ، أى آدم وذريته ، هذا يخلف هذا ، وهذا يخلف هذا ، وهكذا .

وقد تحكمت جُرْهم ، تلك القبيلة الضعيفة التى نشأ فيها إسماعيل - عليه السلام - زماناً من الدهْر وجاءها يوم غلبت فيه ، فرحلت عن مكة ، حتى وقف رجل منهم ، كان قد تخلف ليجمع ما شاء الله له أن يجمع من إبله ، فنظر إليها وأنشأ أبياتاً منها قوله:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أى أنه مع طول مدة حكمها وبقائها كأنها لم تكن شيئاً ، وقد قال الله - عز وجل -: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢)﴾ [الأعراف] وهكذا كل من ملك فى هذه الدنيا شيئاً طال عمره أو قصر كأن لم يكن ، صار ذكرى ، وصار مُلْكه من بعده لغيره ، لكن النظر إلى الملك الظاهر يوهم كثيراً من الناس أنه حقيقى ، قال صاحب الجنتين: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥)﴾ [الكهف]

www.ibtesamh.com/vb

فبادت على حياة عَيْنه ، وأصبح يُقلِّب كفَّيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول : يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً.

من أجل هذا قال الله - عز وجل -: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [هود] أى تذكروا أن الأرض ومن فيها لله ، فلا تنسوا هذا ؛ فنسيانه ضلال مبين ، ويجب أن يتذكر هذا من يملك من الأرض شيئاً حتى لا يكون مثل صاحب الجنتين ، ومن لا يملك حتى لا يعبد من يملك من دون الله ، فالذى تذكر ، وهو صاحب صاحب الجنتين نفعه ذكره ، حيث قال له وهو يحاوره: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)﴾ [الكهف] ما قال له مثل الذى يقال اليوم فى خضم النسيان ، حيث نسمع ما لا يرضى ربنا من القول ، من نحو قول الناسين أن الأرض ومَنْ فيها لله: ومَنْ نكون يا باشا بالنسبة إليك إننا من جملة عبيدك ، وأنت ولى نعمتنا ، وأنت ربنا راضٍ عنك ، ولولاك لضعنا ، وما كنا.. قل يا حكيم يا عاقل يا متنور ، يا سيد الناس .

وليس معنى تذكرنا أنَّ الأرض ومن فيها لله أن ننكر تفضيل الله إيانا بعضنا على بعض ، وإنما كما قال الله - عز وجل - فى خاتمة الأنعام ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾ [الأنعام]

وقد تأكدت جملة العقاب بإنّ وحدها ، وتأكدت جملة الرحمة

www.ibtesamh.com/vb

بإن واللام ، فاللهم ارحمنا ولا تعاقبنا.

وحين جاءت الآية الثانية بالسماوات السبع والعرش العظيم خُتمت بقوله تعالى ﴿ أَفَلا تَتَّقُونَ.. (٨٧)﴾ [المؤمنون] لمناسبة ذلك وجاءت التقوى بعد التذكر ؛ لأنه لن يتقى الله لاهٍ ، ناسٍ منخرطٍ فى وهم الأرض ومن عليها ، يُفتن بذلك ، إنما يتقيه -عز وجل- من تذكر أن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده ، وأنه - تبارك وتعالى - رب السموات السبع ورب العرش العظيم الذى وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم.

ثم تأتى الآية الثالثة ، أعنى « لمَنْ »؟ الاستفهامية ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ.. (٨٨)﴾ [المؤمنون] وقد خُتمت بقوله تعالى: ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩)﴾ [المؤمنون] أى ما لكم كأنكم مسحورون تذكرتم قولاً ، واتقيتم قولاً ، ولا تعملون بمقتضى التذكر والتقوى ، وهذا ما عليه كثير منا، إننا نقول دون أن يسألنا أحد : الأرض لله ، ولا يدوم إلاّ وجهه ولو دامت لغيرنا ما وصلت إلينا ، وندَّعى أننا متقون ولكن أعمالنا تنافى ذلك ، وهذا معنى السحر فمعناه التخييل ، شيء ثابت ، وتراه متحركاً مع أنه ثابت شيء تظنه قد حدث ولم يحدث ، وهكذا نحن، لو كنا حقاً متذكـرين ومتقين لما سحرنا ســاحر من مالك وغــنى ، وجامـع ثروات ، وما أخذتنا زينة الحياة الدنيا ، فبرغم قولنا: الملك لله ننسى الله ، وبرغـم عباداتنا نحب ما عند الناس ونراه أقرب إلينا مما عند ربنا ، ونتوهم أنه لولا فلان وفلان لضعنا ، إلى غير ذلك مما

www.ibtesamh.com/vb

هو معروف ، يشهد به الواقع.

٣ - وفى سورة القصص الآيات ٧١ - ٧٣ يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [القصص] جواب واحد هو: لا إله إلاّ الله ، الذى يأتينا بضياء ولا إله إلا الله ، الذى يأتينا بليل نسكن فيه ، ويترتب على هذا الجواب السمع والبصر ، السمع لآيات الله والبصر للحق الذى أمر به ، ولعلك تلحظ هنا أن (مَنْ) جاء بعدها (إله) أى أن الذى يأتى بالليل والنهار لا يمكن أن يكون غير إله ، فلا إله إلاّ الله .

٤ - وفى سورة الروم الآية ٢٩ يقول الله عز وجل: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩)﴾ [الروم] والسؤال بـ « مَنْ » لا جواب له إلاّ: لا أحد نعم ، لا أحد يهدى من أضل الله ، ولا أحد يضل من هدى مَنْ يهد الله فلا مُضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وفى آية الكهف: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧)﴾ [الكهف]

وصدر الآية يفسر لنا معنى ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ.. (٢٩)﴾ [الروم]

www.ibtesamh.com/vb

حيث قال تعالى: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ.. (٢٩)﴾ [الروم] أى لذلك أضلهم الله ، فهم الذين آثروا العمى على الهدى لأن الله تعالى غنى عن العالمين ، قال سبحانه فى آية التغابن ٦: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾ [التغابن]

ونحن نقول: إن الله عز وجل - كما جاء فى الحديث القدسى ، عند ظن عبده به ، فإن ظن به خيراً فهو خير وإن ظن عكس ذلك فهو كما ظن ، قال الله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا.. (٤٠)﴾ [التوبة] وقال سبحانه: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

وروى البخارى أن النبى ﷺ زار رجلاً مريضاً ، فقال له على عادته ﷺ كلما زار مريضاً « طهور » فردَّ عليه الرجل قائلاً فى تعجبه تقول: طهور ، بل هى حمى تفور. على رجل كبير تزيره القبور » فقال عليه الصلاة والسلام : فنعم إذاً ومات الرجل كما قال.(١).

فالبلاء موكل بالمنطق ، فعلى مَنْ ييأس من رحمة الله أن يذكر الكافرين ، وأن يذكر فعل هذا الرجل ؛ فإن كثيراً من الناس لا يرى فى الحياة من أمل ولا رجاء ؛ لأنه ينظر فقط إلى الأسباب ، وينسى رب الأسباب الذى أوجدها ، وقوته قوة القوى ، ورحمته أقرب إلى مَنْ رجاها من توفرها ، ولا يحول عدمها دون رحمته ، فقد نبع

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦١٦ ، ٥٦٥٦ ، ٥٦٦٢ ، ٧٤٧٠) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، وأخرجه أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك (١٣٦٤١).

www.ibtesamh.com/vb

زمزم من تحت قدمى إسماعيل ، حيث لا سبب يوحى بأن ماء فى الطريق ، وأمر -عز وجل- موسى أن يضرب الحجر فانفجرت منه اثنتى عشرة عيناً ، ورد الله بصر يعقوب إذْ ألقى قميص ولده يوسف على وجهه وما كان فى القميص من نفع ولا ضر ، ونجَّى يونس من بطن الحوت حيث الظلمات بعضها فوق بعض ، وما أكثر المظاهر الدالة على قرب رحمة الله - عز وجل - برغم ما تراه العيون من فقد السبب ، ولابد من السبب اجتهاداً فى الوصول إلى رحمة الله ، وهو من رحمة الله ، لكن العادة عند الناس أنهم يحكمون على الأشياء بما يرون من سبب ، ولله مخارج ، وقد قال عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ.. (٣)﴾ [الطلاق]

٥ - وفى سورة هود الآية ٣٠: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ.. (٣٠)﴾ [هود]

سبحان الله . هو ختام آية (المؤمنون) ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥)﴾ [المؤمنون] يزعم الناس أن بعضهم ناصر بعضاً ، لو تذكروا أن أحداً لن ينصر أحداً إلاّ بإذن الله ، ولو تذكروا أنّ الله إذا أراد أن يأخذ أحداً بعذاب فما له من ناصر ، لو تذكروا وتذكرنا ذلك لآمنا بالله، وعرضنا أنفسنا لرحمته ، حيث إنَّا على يقين أن الله -تعالى- من المجرمين منتقم ، وأنه لا أحد ينصرنا من دون الله : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ.. (٨١)﴾ [القصص]

(من ينصرنى من الله ؟)

www.ibtesamh.com/vb

الجواب: لا أحد.

فما مقتضى ذلك؟

إن مقتضى ذلك أن ينأى الإنسان عن الظلم ؛ لأن الله إذا أخذه فسوف يأخذه أخْذ عزيز مقتدر: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود] ومَن نأى بنفسه عن الظلم فقد دنا من رحمة الله .

٦ - وفى سورة النساء الآية ١٠٩ يقول الله - عز وجل : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (١٠٩)﴾ [النساء]

والسؤال الوارد فى الآية ﴿ فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩)﴾ [النساء]

والجواب: لا أحد

والسؤال الثانى ﴿ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩)﴾ [النساء]

والجواب: لا أحد.

وإذا كان الأمر كذلك فَلِمَ المجادلة عن المذنبين ؟! ولم الوكالة عن المجرمين الذين نعلم أنهم مجرمون ؟! إن هذه الآية الكريمة تخاطب كل إنسان خصوصاً المحامين ، الذين يعلمون أن موكلهم مرتكب لجريمة ، ويدافعون عنه بشتى الطرق من أجل تبرئته من جرم قد ارتكبه فى مقابل مادى ، كبر أو صغر يحل لهم ذلك بلا شك

www.ibtesamh.com/vb

إن ترافعوا عن بريء ، لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، لكن اللجاجة وما عبر عنه ﷺ بقوة الحجة الظاهرة التى يمكن أن تثبت حقاً ليس من حق الألحن بحجته من أخيه ، قال النبى ﷺ: « إنما أنا بشر وإنما أحكم بينكم على النحو الذى أسمع منكم ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من أخيه ، فأحكم له ، ثم قال: فلا يأخذها ، فإنما أقضى له بقطعة من النار[1].

ويُعد هذا الحديث أصلاً بنى عليه: إن القاضى يقضى بالظاهر، قد يكون هذا الظاهر شهادة زور ، أو ورقة مجلوبة بمال ، أو كلمة بليغة ونحو ذلك ، فإن حصل مَنْ وفر ذلك على شيء من الدنيا، فالدنيا زائلة زائلٌ مَنْ فيها ، وسوف يعرض الناس جميعاً يوم القيامة على الله - عز وجل - والله -عز وجل- لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

ومن رحمته عز وجل أنْ قال فى الآية بعدها (١١٠): ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠)﴾ [النساء] فليتب إلى الله كل امرئ ظلم من هذا الباب ، وليرجع الحق إلى نصابه قبل أن يلقى الله ظالماً.

٧ - وفى سورة البقرة الآية ٢٥٥: يقول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٣١٧) عن أم سلمة رضى الله عنها ، ولفظه: إنكم تختصمون إليّ ، وإنما أنا بشر ،ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضى بينكم على نحو مما أسمع منكم » الحديث.

www.ibtesamh.com/vb

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ [البقرة]

والسؤال: مَنْ ذا الذى يشفع عنده إلاّ بإذنه؟

والجواب: لا أحد يشفع عنده إلاّ بإذنه ، فمن رحمته أن أذن بالشفاعة ، وهى جزء من رحمته وفضله ، يرحم به الشافع ومن يشفع له.

٨ - وفى سورة آل عمران الآية (١٣٥) يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾[آل عمران]

والسؤال: مَنْ يغفر الذنوب إلاّ الله ؟

والجواب: لا أحد يغفر الذنوب إلاّ الله .

ومقتضى ذلك أن يستغفر المذنب ، وليس بينه وبين الله -عز وجل- واسطة.

٩ - وفيها الآية (١٦٠) يقول ربنا عز وجل : ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾ [آل عمران]

www.ibtesamh.com/vb

والسؤال: مَنْ ذا الذى ينصركم من بعده؟

والجواب: لا أحد.

والمقتضى أن يسعى الناس إلى نصر الله ورحمته.

١٠ - وفى سورة النساء الآية (٨٧) يقول الله عز وجل: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)﴾ [النساء]

السؤال: مَنْ أصدق من الله حديثاً؟

والجواب: لا أحد أصدق من الله حديثاً .

والمقتضى: الإيمان باليوم الآخر ، حيث الجنة من رحمته والنار من عدله، وكلنا على متن الرجاء قائلون: اللهم ارحمنا ولا تعذبنا

وفيما يتصل بهذا السؤال من موضوع الرحمة أن الرجاء يكون أمكن ، وله بهاؤه ، وجماله ، إذا كان الراجى على يقين من صدق مَنْ وعده بالرحمة. أما جربت الناس وعرفت أن فيهم مَنْ يقول لأخيه: لك عندى كذا وكذا ، أو إن فعلت كذا وكذا رحمتك ، وفى نهاية الأمر لا يجد منه عطاء ولا رحمة ، أما ضرب الناس المثل برجل اسمه عرقوب ، وعد مَنْ رجاه شيئاً من تمره ، فوعده إذا اصفر ، فلماء جاءه وقد اصفر قال له: إذا احمر ، فلما احمر جاءه قال: إذا صار رطباً ، فلما أنْ صار رطباً جاءه فأخبره بأنه باعه ، وقال الشاعر:

www.ibtesamh.com/vb

صارت مواعيد عرقوب لها مثلاً

ومـــا مواعيـــدها إلاّ الأباطيـــل

إن الخُلْف فى الوعد، وتكراره، وتفشيه وتزكية ناره مما يسبب اليأس من رحمة الناس، فإن سُدت كل أبواب الأمل والرجاء فهيهات أن تُسد فيما يتصل برحمة الله ، إذ وعده الحق، وقوله القول: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)﴾ [النساء]

١١ - وفى سورة الأنعام الآية (١٢) يقول ربنا تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.. (١٢)﴾

[الأنعام]

والسؤال هنا: قل لمن ما فى السموات والأرض ؟

والجواب فى الآية: قل لله .

فانظر إلى ما بعد الجواب: كتب على نفسه الرحمة ولك أن تربط بين الرحمة الواسعة التى كتبها الحق تعالى على نفسه وبين ملكه ما فى السموات والأرض ، حيث إنه عز وجل يرحم عن حق ، لا عن غرور ، أرأيت لو أن إنساناً قال لك: إننى أرحمك: فإن لى كذا وكذا وأنت تعلم أنه لا شيء مما ذكر يملكه أكنتَ تطمئن إلى ما وعدك به من رحمة !

كيف والرحمة ذات صلة وثيقة بالملك ، تقول: رحمة فلان ، إذا

www.ibtesamh.com/vb

كان يملك عمارة ، فأعطاك منها شقة بثمن زهيد ، أو وهبها لك ، أو أعطاك شيئاً.

قالت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما : إن أباها حين منحها خادماً يقوم على سياسة فرس زوجها الزبير بن العوام ، وكانت تقوم هى بسياسته ، قالت: كأنما أعتقنى ، معناه أنه رحمها ، إذ أعطاها خادماً يقوم مقامها فى سياسة الفرس الذى كانت تحمل علفه فوق رأسها ، وتقوم برعايته.

١٢ - وفى سورة الأنعام الآية (٦٣) يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣)﴾ [الأنعام]

السؤال: مَنْ ينجيكم من ظلمات البر والبحر؟

والجواب: فى الآية (٦٤) بعدها ، حيث يقول -تعالى-: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)﴾ [الأنعام]

إن الإنسان إذا وقع فى كرب دعا الله - عز وجل - تضرعاً وخُفية وهو فى ظلمات البر ، والبحر ، والله - تعالى- كما قال ينجيه منها ومن كل كرب ، فإذا به وقد نجَّاه الله يشرك ب الله .

وهذا المعنى واضح ، وما بين الناس يشهد به فأنت ترى الإنسان يعلم مصدر إنقاذه مادياً ، من والد أو والدة ، أو زوج ، فإذا احتاج لم يقصد غيره ، فإنْ أعطاه صدَّ عنه وعقّه ، حتى يحتاج مرة أخرى ، هذا

www.ibtesamh.com/vb

معهود عند كثير ممن لا خلاق لهم ، ترى بعضهم كما قيل لا يعرفك إلاّ عند الأزمة ، ساعتها يتودد إليك ويرجوك ، ويقسم لك بوكيد الأيمان أنك أغلى عنده من الدنيا وما فيها وأنه معترف بفضلك ، مقرٌّ بأياديك ، غير ناسٍ ما قدمت له سلفاً ، طامع فيما أنت معطيه الآن، فإن أعطيته ولى مدبراً ، كأن لم يأتِك فى حاجة ، ولم يقصدك فى أزمة ، وحال هؤلاء مع الله - عز وجل - كذلك.

١٣- وفى سورة يونس الآية (٣١) يقول عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١)﴾ [يونس]

أسئلة متعددة فى آية واحدة؟

١ - من يرزقكم من السماء والأرض؟

٢ - ومن يملك السمع والأبصار؟

٣ - ومن يُخرج الحى من الميت ويُخرج الميت من الحى؟

٤ - ومن يدبر الأمر؟

والثالث سؤالان فى سؤال: من يُخرج الحى من الميت سؤال ، ومن يُخرج الميت من الحى سؤال آخر.

والجواب فى الآية « سيقولون الله »؟

وتقتضى المعرفة التقوى ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ.. (٣١)﴾ [يونس]

www.ibtesamh.com/vb

ثم يقول -تعالى- فى الآية. بعدها (٣٢): ﴿فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢)﴾ [يونس]

فكيف تُرجى رحمة غير الله ، و الله وحده الرزاق ، و الله وحده يملك السمع والأبصار ، و الله وحده يُخرج الحى من الميت ويُخرج الميت من الحى ، و الله وحده الذى يدبر الأمر.

فلا رحمة إلاّ رحمته ، وهو أهلها والقادر عليها.

١٤ - وفى سورة هود الآية (٦٣) جاء على لسان صالح - عليه السلام -: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)﴾ [هود] والسؤال « فمن ينصرنى من الله إن عصيته » والجواب: لا أحد وهذه الآية درس تربوى للذين منحهم الله رحمته عن طريق زوج كريم ، أو والد بار ، أو أُم غنية، فإذا بهؤلاء يزيدون أنفسهم شقاء بعصيان هؤلآء ، والتمرد عليهم بغير حق ، وقد جرَّب الناس ذلك ، وما أكثر الذين خربوا بيوتهم بأيديهم بهذه الطريقة ، ولو أن مثل هؤلاء اتقوا الله فى هؤلاء لجرى خير الله على أيديهم لكنه الهوى الذى آثروه على الهوى ، فضيعوا فى الصيف اللبن ، واللبن فى الصيف عزيز.

١٥ - وفى سورة الرعد الآية (١٦) يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ

www.ibtesamh.com/vb

لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾ [الرعد]

السؤال: مَنْ رب السموات والأرض ، والجواب والمقتضى فى الآية نفسها ، أما الجواب فيقول تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ.. (١٦)﴾ [الرعد] وأما المقتضى فرجاء رحمته بعبادته وحده لا شريك له ، فجميع ما يتخذ من دونه من أولياء لا يملكون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم نفعاً ولا ضراً.

١٦ - وفى سورة الإسراء الآية (٥١) سؤال من الكافرين وجواب من رب العالمين ، ولا جواب سواه: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)﴾ [الإسراء]

فالجواب لا اعتراض عليه ، وإنما قال الكافرون : متى هو؟ والجواب: قل عسى أن يكون قريباً.

وهكذا نجد هذا السؤال الذى ليس له إلاّ جواب واحد ، هو الله فلا رحمة إلاّ رحمته ، ولا ظلَّ إلاّ ظله ، هو مالك الملك وحده بيده أمر كل شيء ، وإليه يرجع الأمر كله ، وهناك سؤال ورد فى سورة المزمل ،ليس له إلاّ جواب واحد ، كذلك وهو قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧)﴾ [المزمل]

www.ibtesamh.com/vb

إن مثل هذا السؤال فى حياة الناس له جواب متعدد وفق الاحتمال فمثلاً إن قلتَ لولدك: كيف تتصرف إنْ أنسيت قلمك؟ يقل لك:

١ - أشترى قلماً.

٢- أو أستعير قلماً من زميلى.

٣ - أو أعود لآخذه إن كان الوقت يسمح.

وفى الحديث: إذا نام أحدكم عن صلاة أو نسيها فليُصلها إذا ذكرها. هناك فرصة ما دام المرء حياً ، لكى يدرك ما فاته ، لكن ماذا يفعل التارك للصلاة يوم القيامة لا مجال هنالك لكى يصلى ، فاليوم يوم الحساب ، وقد ضيَّع عمره.

كذلك السؤال الوارد فى سورة المزمل ، حيث إن الجواب عنه غير متعدد ، فليس هناك إلاّ جواب واحد هو : إن كفر العبد فلا نجاة له من العذاب ، والمؤمن الذى ارتكب الذنوب إما أن يغفر له الله وإما أن يعذبه بها ، وهو بين الرجاء والخوف ، لكن ماذا يفعل الكافر؟

رحمة الله بالمؤمن والكافر

ومن رحمة الله -تعالى- بالمؤمن والكافر ما جاء فى قول الله -عز وجل- من سورة الفتح الآية (٢٥): ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح]

www.ibtesamh.com/vb

كف الله - تعالى - أيدى المؤمنين من الكافرين كما كف أيدى الكافرين من المؤمنين من أجل رحمته ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)﴾ [الفتح]

قال ابن كثير فى تفسيره (١٩٣/٤) « أى يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام » وذكر رحمه الله أنّ جنيد بن سبيع قال : قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً ، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً ، وفينا نزلت ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ.. (٢٥)﴾ [الفتح] قيل: كانوا ثلاثة رجال وتسع نسوة ، وقيل : سبعة رجال وامرأتين[1].

لا شك أن دراسة هذه الآيات من سورة الفتح مهمة جداً فى حياتنا من حيث استثمار معانيها فى كل وقت ، وفى كل مكان ، تتجدد فيه تلك المناسبة ، ولكن الناس فى تلك المَناسبات يودون القضاء على الأخضر واليابس ،ويقولون القول الشائع: « اقطع عرقاً وأرِقْ دماً » غير ناظرين إلى الحكمة من التداوى ، فقد يكون المستقبل حافلاً بالخيرات ، وأقل مثال على ذلك ما نراه من صبر رجل على امرأته من أجل ألاَّ يضيع أولاده منها ، وفى رحلة الصبر الجميلة يراها قد عادت إلى أطيب حياة ، وأجمل مسار ، عادت سيرتها الأولى من

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢١٥٩) من حديث جنيد بن سبيع ، وكذا أبو نعيم الأصبهانى فى كتابه (معرفة الصحابة) (١٥٥٧).

www.ibtesamh.com/vb

حسن الخلق والمعاشرة إن كانت لها سيرة أولى ، أو بدأتها ابتداء إن لم تكن لها.

وكذلك صبر الزوجة على زوجها من أجل أولادها منه ، فإذا به يعود رجلاً طيباً ، ما كان أحد يظن أنه سوف يعود رجلاً طيباً كريماً ويترك أسوأ عاداته التى تعودها من فحش القول وخبث السيرة ، وسوء الخلق ، عاد يصلى ويصوم ويعمل ويربح ويملأ بيته بالخيرات ويعطف على زوجته وأولاده ، ويرحمهم وكان قبل الصبر عليه لا يطيق مجرد النظر إليهم ، كان كريماً مع كل الناس إلاّ معهم ، واليوم صار يدرك معنى الأولوية .

وقد رغب عمر بن الخطاب أن يقطع ثنية رجل من المشركين لأنه كان يهجو الإسلام ؛ فلم يوافقه رسول الله ﷺ. وقال: لعله يقوم مقاماً لا تذمه فيه [1] ، وقد صدق ﷺ فأسلم الرجل ، وكان فصيحاً خطيباً ، فقام فى قومه يدعوهم إلى الإسلام بلسان فصيح فلو تعجلنا الأمر ، وقطعنا ثنيتيه لما كان منه هذا البيان إذْ هداه الله .

وثمامة بن أثال الذى أسره المسلمون ورحمه ﷺ فتركه وفك قيده، فأسلم. وقام بدور عظيم ، حيث كان غنياً أقسم بالله أن يمنع قريشاً الحب الذى يأتيهم من قبله حتى استشفعوا رسول الله ﷺ ،

(١) أورده الزيلعى فى كتاب (نصب الراية) (١٣٠/٣) وعزاه للواقدى فى كتاب المغازى عن يحى بن أبى كثير والرجل الذى كان يهجو الإسلام هو سهيل ابن عمرو ، وفيه أن رسول الله قال: لعله يقوم مقاما لا تكرهه.

www.ibtesamh.com/vb

فشفع لهم عنده فأعطاهم عن عزة وكرامة لله ورسوله ، والنماذج كثيرة ، ومنها عفوه ﷺ عن عبد الله بن أبى السرح الذى ارتد ، وشفع له عثمان - رضى الله عنه.. وكان أخاه فى الرضاعة ،وحسن إسلامه بعد وما كان منه من جهاد وفتوحات رفع فيها راية الدين وأعز الله به المسلمين.

والمرتد فى الإسلام لا يُقتل من أول لحظة وإنما يستتاب ، وكذلك تارك الصلاة ، وكذلك الكفار لا يقاتلون فى باب الجهاد إلاّ بعد دعوتهم إلى الإسلام ، فإن أبوا عرضت عليهم الجزية ، تأتى إراقة الدماء من أول لحظة إلاّ عند أهل الحمق ، الذين لا يبصرون ، فالإسلام ليس بذى شهوة إلى إراقة الدماء ، ولا إقامة الحدود وقد قال النبى ﷺ: « ادرءوا الحدود بالشبهات » أى ادفعوها بالشبهة ، وقد عدّ العلماء المسألة الخلافية من الشبهة ، أى إذا اختلفت كلمة الفقهاء فى مسألة توجب حداً كالتداوى بالمحرمات ومنها الخمر دفع الحد بهذا الخلاف ، هذا فضلاً عن الشهود وغيرها مما تُدرأ به الحدود.

وقد ذكر السَّرخسى أن أحد قضاة بلخ جىء إليه بشارب خمر سكران ليقيم عليه الحد فقال له القاضى: اقرأ قل يأيها الكافرون ؛ فقال له السكران: اقرأ أنت فاتحة الكتاب فقال: الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم قال: قف ، أخطأت قال: كيف؟

قال: لم تقرأ البسملة ، وهى آية من الفاتحة وإنما الخلاف فى الجهر

www.ibtesamh.com/vb

بها فى الصلاة ؛ فتركه القاضى وقال للشرطة: ما جئتم بسكران وإنما جئتم بفقيه وهكذا نرى أن الدين دين الرحمة لا العذاب ، وأن فكرة إراقة الدماء ، والعجلة بالتدمير ليست واردة فيه جملة وتفصيلاً.

وباب الجهاد فى الفقه الإسلامى جاء فيه أنه إما أن يكون فرض عين - إذا هجم الأعداء على المسلمين ودخلوا بيوتهم ومشوا فى شوارعهم.. وإما أن يكون فرض كفاية ، والحاكم هو الذى يقرر متى يغزو ، وفيه أقوال الفقهاء المستمدة من سيرة المعصوم ﷺ حول مفاوضة المشركين ، والتنازل لهم عن بعض الأموال إذا كان بالمسلمين ضعف ، وفيه كما ذكرت المنهج القويم لهذا الدين ، والذى يبدأ بعرض الإسلام وما أرسل رسول الله ﷺ كتاباً إلى ملك أو رئيس إلاّ قال له: أسلم تَسلم. فنحن أصحاب رسالة ودعوة إلى الله - عز وجل لا أصحاب غزو طائش ، وسفك دماء.

www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الثانى

مظاهر رحمة الله تعالى

www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb

الكتب السماوية

القرآن الكريم وغيره من الكتب السماوية من أهم مظاهر رحمة الله - عز وجل - لأن هذه الكتب حاملة كلمته -تعالى- إلى عباده ، أمره ونهيه ، خبره ، وقصصه وكل ذلك فيه خير لعباده.

قال -تعالى- فى سورة هود الآية (١٧): ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً (١٧)﴾ [هود]

وفى سورة يوسف (١١١): ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ [يوسف]

وفى سورة النحل الآية (٨٩) يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾ [النحل]

وقال -تعالى-: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.. (٨٢)﴾ [الإسراء] ولن يكون الكتاب الكريم شفاء ورحمة إلاّ بالتوقف عنده ، وعرض أحوالنا عليه ، فما وافقه منها أثبتناه ، وما خالفه منها غيَّرناه

www.ibtesamh.com/vb

وفق نوره وهديه ونحن نؤمن بأن الكتب السماوية ما نزلت إلاّ هدايةً للناس وتوجيهاً لهم نحو رحمة الله عز وجل ، وما أكثر القضايا التى تتصل بهذا الموضوع ، ولكن على الجملة أقول: ما زال الناس بخير ما أقاموا كتاب الله -عز وجل - وما زالوا فى رحمة الله - سبحانه وتعالى - إذا نهلوا منه فهو المعين الذى لا ينضب .

رسول الله - ﷺ - رحمة للعالمين:

ورسول الله ﷺ.. رحمة الله للعالمين ، قال عز وجل فى سورة الأنبياء الآية (١٠٧): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء]

فبعثة النبى ﷺ رحمة من الله - عز وجل - بعباده ؛ لأنه رسول الله إليهم ، يبين لهم آياته ويوضح لهم شرعه ومراده ، ويهديهم إلى رحمته وكذا إخوانه - عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

فمن اهتدى واتبع الرسول فاز برحمة الله ودخل فيها ومَنْ صد عنه وأقر العمى على الهدى أبى أن يدخل الجنة ، وقد قال ﷺ « كل أمتى يدخلون الجنة إلا مَن أَبَى ، فلما قال الناس: كيف يأبى أحد أن يدخل الجنة؟ قال: مَنْ أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى »[1].

ورسول الله - ﷺ - منّة من الله علينا ، والمنة من الرحمة ، قال

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٠) ،وأحمد فى مسنده (٨٧١٣ ، ١٩٣٩٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وفى لفظ عند الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٧٦٢٦): « إلا من أَبَى وشرد على الله كشراد البعير » . وهو لفظ له دلالته.

www.ibtesamh.com/vb

سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)﴾ [آل عمران]

وكونه - ﷺ - رحمة للعالمين دليل على عالمية الإسلام ، الأمر الذى يقتضى أن يبذل المسلمون جهدهم فى نشر دعوته من خلال إبراز تلك الرحمة .

الأهل من رحمة الله :

وفى سورة الأنبياء الآية (٨٤) يقول الله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)﴾ [الأنبياء]

وحين تقف عند هذه الآية وتبصر ما عليه الواقع تجد لهيباً فى الصدور ، حيث إن الأهل ما عادوا أهلاً.

أبتاه إن الأهل بعدك كالعدا

ما عاد فيهم واصل ونسيب

بيت من قصيدة لى فى رثاء الوالد - رحمه الله ، ما عاد الأهل نسيجاً من مودة كما كانوا وما عادوا رحماء واصلين ، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ.. (٨٤)﴾ [الأنبياء] والدال على الكثرة ، ولكنها الكثرة النافعة ، لا غثاء السيل.

إن رحمة الله - عز وجل - فى الأهل معناها مقتضى الأهل من التعاون والتواد ، والتعاطف والتراحم ، ويجب أنْ يعود هذا

www.ibtesamh.com/vb

المعنى ، يجب أن يرجع ، حتى يشعر الناس بنعمة الأهل التى هى رحمة من الله تعالى ، قال -تعالى-: ﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠)﴾ [يس] مع أن الذين قامت عليهم القيامة لا يستطيعون توصية ولا إلى الدنيا بكل ما فيها يرجعون ، لكنه خص الأهل بالذكر ؛ لأن الرجوع إليهم هو الرجوع.

الأخ الصالح من رحمة الله :

قال -تعالى- فى سورة مريم الآية (٥٣): ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾ [مريم]

فالأخ الصالح نبياً كان أو غير نبى من مظاهر رحمة الله - عز وجل - قال تعالى: ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ.. (٦٩)﴾ [يوسف] وقال -جل وعلا-: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ.. (٣٥)﴾ [القصص]

ومن أهوال يوم القيامة قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤)﴾ [عبس] جعل فرار الأخ من أخيه من أهوالها ، فالأصل المعهود ألا يفرَّ أخ من أخيه فإذا ضيع الناس هذا المعنى فقد أفسدوا إحساساً بالكتاب العزيز ، فإن الذى عهد فرار الأخ من أخيه فى الدنيا كيف يشعر بأن ذلك من الأهوال !

ومن رحمة الله - تعالى - بعباده أن جعل المؤمنين إخوة لكن تبقى أخوة الدم والنسب ذات مرتبة عالية خصوصاً إذا كان هذا الأخ صالحاً ، يصل أخاه ويعلم حقه عليه ، فهو يؤثره على نفسه ، ولا

www.ibtesamh.com/vb

يعنفه ولا يشق عليه ، بل يكون عوناً له ، وردءاً وقد قال رسول الله ﷺ: « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، ظالماً بأن تمنعه عن الظلم ، ومظلوماً بأن تسعى فى رد مظلمته »[1].

الزواج من رحمة الله بعباده:

ومن مظاهر رحمة الله - عز وجل - أن شرع لعباده الزواج علاقة طيبة تحقق سكن النفس واستقرارها ، وجعل بين الزوجين مودة ورحمة ، قال الله - تعالى - فى آية الروم (٢١): ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً.. (٢١)﴾ [الروم] والسكن إلى بخلاف السكن مع ، فالمسألة فى الزواج ليست من قبيل نفس تسكن مع نفس ، وإنما من سبيل نفس تسكن إلى نفس، و« إلى » تفيد انتهاء الغاية ، كأنّ انتهاء السكن من بعد طول عناء إنما هو الزوج ، فالمعية محققة بالقلوب قبل الأبدان ، وإذا كانت البينية ، أى المسافة بين الزوجين مادية ومعنوية كلها مودة ورحمة فكيف نرى حياة الأزواج فى ظل هذه الآية الكريمة ، وكيف نراها فى ظل الواقع المرير ، حيث اخترق الناس المعانى ، فأفسدوها، كما أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، فالبينية مع الأباعد تجد فيها المودة والرحمة وبين الأقارب والأزواج فى منتهى السوء ، لما دب من قضايا افتعالية ، وسوء أحدثه الناس فى الزواج منذ فترة

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٥٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وكذا الترمذى فى سننه (٢٥٥) وأحمد فى مسنده (١١٩٦٧ ، ١٣١٠١).

www.ibtesamh.com/vb

الخطوبة وما يحدث فيها من مد وجزر ، ومن وعود براقة ومخالفة حقيقية لمقتضاها بعد الزواج ، الأمر الذى لابد من إصلاحه حتى يتفيأ الناس ظلال رحمة الله تعالى.

الولد الرحيم:

ومن رحمته تبارك وتعالى أن يرزق بعض عباده بولد رحيم ، ألا ترى إلى قوله - عز وجل - فى سورة الكهف الآية (٨١): ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)﴾ [الكهف]

وقد قيل إن الله رزقهما بنتاً بعد أن قتل الخضر الغلام ، فليس شرطاً أن يكون الولد الرحيم ذكراً ، فربَّ أنثى خير من ألف ذكر زكاة وطهارة وأقرب منه إلى والديها رحمة وبراً وحناناً ، قال الله -تعالى- فى مريم - عليها السلام-: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾ [آل عمران] ، وقد ضرب الله - عز وجل - مثلاً للذين آمنوا بمريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ، وبامرأة فرعون التى قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾ [التحريم] و الله عز وجل يقول: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الشورى]

فمن وُهب ولداً ، ذكراً كان أو أنثى فعليه أن يعلم أنه وهب رحمة من الله عليه أن يرعاها حتى تظل رحمة ، وحتى يجنى ثمرتها براً

www.ibtesamh.com/vb

وحناناً ، وتكون له امتداداً فى عبادة الله ، ومما ينفع الوالدين بعد وفاتهما ولد صالح يدعو لهما.

التمكين فى الأرض من رحمة الله :

والتمكين فى الأرض من رحمة الله ، وقد جاء ذلك مرتين فى سورة يوسف ، حين دخل بيت عزيز مصر الذى اشتراه ، قال الله : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ.. (٢١)﴾ [يوسف] وحين عين وزيراً على البلاد قال الله : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(٥٦)﴾ [يوسف]

والتمكين فى الأرض سواء أكنت فى بيت ليس ملكاً لك ، أم كنت وزيراً على كل البيوت من رحمة الله ، نعم من رحمة الله - تبارك وتعالى - أن يكون لك بيت تسكنه ، يحميك كما قال ابن عمر رضى الله عنهما - فى الحديث الذى رواه البخارى - من البرد والحر أى من برد الشتاء وحرّ الصيف ، من رحمة الله بك ، قال تعالى: ﴿وَ اللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا.. (٨٠)﴾ [النحل]

وما يتبع ذلك من خصوصية ، فقد جعل الله للبيوت حرمة ، لا يدخلها أحد بغير استئذان وسلام ، كذلك من رحمة الله - تعالى - بأهلها وعلى رب البيت أن يكرم ضيفه وأن يكرم من يعيش معه فيه ، لأنه موطن رحمة الله ، فمن رحم فيه غيره رحمه الله ، وكم من إنسان يهدد زوجه وولده بإخراجهم منه ، فليرحم حتى يرحمه الله ، ولولا

www.ibtesamh.com/vb

فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان.

وفى سورة النساء (٨٣) يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلا (٨٣)﴾ [النساء] أى أن صرف الشيطان عنا من رحمة الله - عز وجل - وما جعله الله - عز وجل - من الاستعاذة به كذلك من رحمته ، فهو يصرف بـ « أعوذ ب الله من الشيطان الرجيم » ولكن لصحيح العزم سليم النية ، الموقن بهذه الكلمة التى روى فيها البخارى[1] عن رسول الله ﷺ : إنى لأعلم كلمة لو قالها (الرجل الغاضب) لذهب كل ما به: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، والغضب من الشيطان.

ومن قديم ما يروى أن شيخاً قال لتلميذه : أرأيت لو كنتَ راعى غنم ، وتبعك كلب ماذا تفعل؟

قال: أدفعه

قال: فإن تبعك

قال: أدفعه

قال: هذا أمر يشق عليك ، فلو ناديت أهله وقلت : يا أهل الكلب اصرفوا عنى كلبكم لصرفه عنك أى منهم دون مشقة منك ، والشيطان كلب ، لا يصرفه عنك إلا من خلقه: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٤٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٨١٢) من حديث سليمان ابن صُرد رضى الله عنه.

www.ibtesamh.com/vb

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠)﴾ [الأعراف]، و الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ [النساء] وهذا أيضاً من رحمة الله - تبارك وتعالى - فلا يدعينَّ أحد أن الشيطان شاطر.

المطر من رحمة الله - عز وجل:

ومن مظاهر رحمة الله - عز وجل - نزول المطر من السماء قال تعالى فى سورة الأعراف الآية (٥٧): ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ.. (٥٧)﴾ [الأعراف] فرحمته: المطر ، والرياح مبشرات بنزوله والماء كما نعلم سر الحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ.. (٣٠)﴾ [الأنبياء] ترى الأرض هامدة خاشعة مواتاً ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

وقد يتأخر نزول المطر ، ومن رحمة الله أن شرع لنا صلاة الاستسقاء ، ندعوه فيها ونتوسل إليه أن ينزل علينا الغيث ، وألا يجعلنا من القانطين ، فإذا بالسماء تمطر علينا ، وإذا كل شيء فينا وحولنا تدب الحياة فيه.

وقد ذكر الثعالبى فى (لطائف المعارف) أن أهل مصر يكرهون رحمة الله ، أى يكرهون المطر ، لأنه يعوق حركتهم ، وليس ذلك على العموم ؛ فإن كثيراً من أهلها شأنهم شأن عباد الله يفرحون به ويُصلون من أجل نزوله ، فإن وجد نفر من سكان المدن يكرهون نزوله لما فى الشوارع من أزمات ، وعدم عناية بما يستقبل الماء

www.ibtesamh.com/vb

لينتفع به فليس معناه أن كل من فى مصر يكرهون رحمة الله .

الليل والنهار من رحمة الله :

وفى سورة القصص الآية (٧٣) يقول الله - عز وجل: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ.. (٧٣)﴾ [القصص]

فالليل سكن والنهار معاش ، وقد يكون معاش الرجل بالليل كالحارس وغيره ، ولكن الأعم الأغلب أن يكون الليل سكناً للناس، وأن يكون النهار آية مبصرة ليسعى الناس فيه إلى معاشهم وجلب أرزاقهم وهم مبصرون ، والله -عز وجل- له اختلاف الليل والنهار ، وقد تكرر ذكرهما فى الكتاب العزيز آية تدل على التوحيد والقدرة الإلهية ، فليس من طاقة أحد أن يأتى بليل أو نهار .

وفيها يقول الحق تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

فلا يستطيع أحد كائناً من كان أن يأتينا بليل أو نهار إلاّ إذا كان إلهاً ، ولا إله إلاّ الله ، الذى من رحمته جعل لنا الليل سكناً والنهار مبصراً ومعاشاً ، أما ترى أن الليل الذى هو سكن ينادينا أن تبقى عليه سكناً ، وأن يرعى بعضنا بعضاً فيه دون إزعاج وصياح وضوضاء !

www.ibtesamh.com/vb

القوة من رحمة الله بعباده:

حين بنى ذو القرنين السد بين القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً وبين الظالمين يأجوج ومأجوج قال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي.. (٩٨)﴾ [الكهف]

نعم إن الحاجز الحصين بين المؤمنين المسالمين وبين الظالمين من رحمة الله - عز وجل.

وقد رأينا ذا القرنين وقد عرض عليه القوم أجراً على أن يجعل بينهم وبين الظالمين المفسدين سداً ، فقال : ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ، ثم قال ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ.. (٩٦)﴾ [الكهف] والقصة معروفة ، ما قال ذو القرنين : هيا ندعو ، أو هيا نقرأ كلمات معينة تُذهب الخوف ، وتصد الظالمين ، ندعو ولكن مع القوة ، ونتلو ولكن مع العمل الذى يتسبب عنه وجود حصن حصين بيننا وبينهم ، وليس شركاً أن يكون حصناً فى الظاهر فقد يكون الحصن قوات مسلحة وسلاحاً نستطيع بهما ردع المفسدين فى أى وقت ، وقد يكون علماً نسبقهم إلى تقنياته ، وقد يكون اقتصاداً يمنعنا أن نكون عالة عليهم ، فقراء نحتاج إلى معونة منهم ، إن لهذا الدين فقهاً كل ما فيه خير ، والآفة أن يتسرب لهذا الفقه ما يصدنا عن الجادة ويجعلنا نعيش فى وهم نتمسح بالدين فيه والدين منه براء.

من رحمته ألا يعجل العذاب:

وفى سورة الكهف الآية (٥٨) يقول الله - عز وجل-: ﴿ وَرَبُّكَ

www.ibtesamh.com/vb

الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨)﴾ [الكهف] بدأت الآية الكريمة بقول الله - عز وجل : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ.. (٥٨)﴾ [الكهف] فالحمد لله أنّ لنا رباً غفوراً ذا رحمة ، ثم قال -تعالى-: ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ.. (٥٨)﴾ [الكهف] ولكن من رحمته أن آتاهم فرصة لعلهم يتضرعون.

وأنت قد قرأت السيرة العطرة ، وعرفت أن رجلاً مثل عمر رضى الله عنه - كان قاسياً على المسلمين عنيفاً ، فلو أن الله عجَّل له العذاب لهلك ، ولكن من رحمته أن منحه الفرصة فأسلم وكان ما كان من عون للمسلمين وفتح من الله عليهم فالفرصة أمام الجميع فهنيئاً لمن اغتنمها وهدى إلى الرشد ، وكم من رجل وامرأة عاشا ألواناً من الفساد والمعاصى والذنوب ، إلى درجة أن الناس يتمنون صاعقة من السماء تأخذهما وهما على تلك الحالة من المعاصى ، وبعد مرور زمن طال أو قصر تجد الأمر قد تغيَّر ، وصار كل منهما آية طاعة تقول عندها وأنت تعلم سابقة المعاصى منهما سبحان مغير الأحوال ؛ وزد عليها الآن: سبحان ربنا الغفور ذى الرحمة لو عجل العذاب لما رأيت ذلك.

من رحمة الله أنه لم يُملّك أحداً خزائن رحمته:

ومن أعظم مظاهر رحمته سبحانه وتعالى أنه لم يملّك أحداً خزائن رحمته ، بل خزائن رحمته بيده وحده قال تعالى فى آية الإسراء

www.ibtesamh.com/vb

(١٠٠) : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)﴾ [الإسراء]

سبحان الله ، لو ملك أحدٌ خزائن رحمته - تعالى - لأمسك خشية الإنفاق ، فهلك الناس وهلكت الدواب ، ولاختل ميزان الحياة ، فقد يعطى الإنسان من يحب ويمنع مَنْ يكره فضلاً عمن يبغض ، على عكس ما ترى من رحمة الله بمن يعبد من دونه آلهة ، بل إنه قد يغدق عليه إغداقاً ، إلى درجة تثير فى نفس الجاهل القلق والاضطراب ، يقول: كافر ، لا يؤمن بالله ، وعنده وعنده وعنده ، بل إنك ربما تجد الغبى الأحمق موسَّعاً عليه فى الرزق ، وغيره من العلماء يشقون ، ولا يجدون معشار ما عنده ، وهو ما عبر عنه من قديم بالذى صير العابد زنديقاً ، ولكن العالم يعلم أن الدنيا دار ابتلاء ، وليس العطاء دليل حب ، ولا المنع دليل بغض ، وقد كان رسول الله ﷺ - يعطى الرجل وغيره أحب إليه منه يتألفه ، ويدع من يمنعه إلى ما عنده من إيمان فهلاّ شكر من فتح الله عليه من خزائنه وهلاًّ صبر من قدر عليه فى الرزق ، وهلاً تدبر الناس هذه الآية التى تزيدنا حباً فى الله الذى جعل خزائن رحمته بيده لا بيد من سواه وإلاّ هلكنا جميعاً.

من رحمة الله تشريع العفو:

وفى مجال القصاص والديات ، يقول الله تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ

www.ibtesamh.com/vb

﴿أخيه شيءٌ فاتباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان ذلك تخفيفٌ من ربكم ورحمةٌ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليمٌ (١٧٨)﴾ [البقرة]

وقال -تعالى- فى آية النساء (٩٢): ﴿وما كان لمؤمنٍ أن يقتل مؤمنًا إلا خطأً ومن قتل مؤمنًا خطأً فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ وديةٌ مسلمةٌ إلى أهله إلا أن يصدقوا.. (٩٢)﴾ [النساء]

وفى حديث البخارى: «رُبَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه»[1] حين قبل الناس الأرش وكانوا قد أصروا على القصاص.

فهذا من رحمة الله - عز وجل - ولو شاء لأعنتنا ، فما جعل من عفو ، وما جعل من صدقة ولكنه سبحانه وتعالى شرعهما رحمة منه بعباده ، والقلوب بيده يقلّبها كيف يشاء ولو شاء لجحدها على قسوة، وإنما أودع فيها اللين والرحمة ، وقبول الأرش والتصدق بالدية على أهل القاتل قتلاً خطأً ، بكلّها أو ببعضها ، فإذا رأيت شيئاً من ذلك فقل الحمد لله الذى لو شاء ما قبل أحد عذر أحد ، وما عفا أحد عن أحد ، وهو عز وجل جعل للعافين المتصدقين أجراً عظيماً يُطمعهم فى العفو ، وما عند الله خير وأبقى.

تحلة الأيمان من رحمة الله :

وفى مطلع سورة التحريم يقول تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفورٌ رحيمٌ (١) قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم

(١) أخرجه البزار فى مسنده (٦٤٥٩) والحاكم فى مستدركه (٧٩٣٢) وصححه وأقره الذهبى.

www.ibtesamh.com/vb

والله مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢)﴾ [التحريم] ما عسى كنا فاعلين لو أقسم أحدنا أن يمتنع عن أكل شيء حلال ، فيه غذاؤه ونفعه ولم تكن أمامه كفارة يمين ، أو قال لامرأته: أنت عليّ كظهر أمى ، ولم تكن أمامه كفارة ظهار ، أو قتل صيداً وهو مُحرم ، ولم تكن له كفارة ، أو نذر نذراً صعباً ، لم يستطع الوفاء به ولم تكن هناك كفارة له ، هى كفارة يمين ، وهى إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة أو صيام ثلاثة أيام لمن لم يكن قادراً على الإطعام وعلى العتق .

وقد قال الله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)﴾ [البقرة] أى كفّروا عن أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم. كذلك من رحمته تعالى أنْ جعل الطلاق مرتين ، حتى إذا ما ندم المطلّق راجع امرأته فى عدتها ، ولو كان مرة واحدة لحدث العنت ، والله يريد بنا اليسر لا العسر من رحمته بنا.

النجاة من رحمة الله :

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ.. (٣٢)﴾ [لقمان]

قال: نجاهم إلى البر ، وتكرر ذلك فى آيات الذكر الحكيم ، وقال عز وجل فى آية هود (٥٨): ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا.. (٥٨)﴾ [هود] وفيها (٦٦) يقول الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا

www.ibtesamh.com/vb

صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا.. (٦٦)﴾ [هود]، وفيها (٩٤) يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا.. (٩٤)﴾ [هود]

وكم من إنسان نجَّاه الله - تعالى - حيث رأى الموت بعينه، وكم من إنسان نجاه الله تعالى حيث لا يظن أحد أن أحداً سوف ينجو، كهذا الطفل الذى نجاه الله وقد هلكت الطائرة وكل من فيها، تلك الطائرة التى سقطت فى ليبيا الشقيقة ولم ينج منها إلاّ هنا الطفل، وكنا فى السعودية، ورأينا سيارة قد انقلبت براكبيها، فاحترقت ومات من فيها إلاّ طفلاً عمره عامان، آيات فى كل زمان ومكان.

يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥)﴾ [القمر] فيا ليت من نجاه الله تعالى يقول قد أنعم الله عليّ ورحمنى، فيشكر؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥)﴾ [القمر] أى ننجى من شكر.

صون المال من رحمة الله :

وفى سورة الكهف الآية (٨٢) يقول الله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ.. (٨٢)﴾ [الكهف]

بصلاح الأبوين، حفظ الله كنز اليتيمين، حيث أقام العبد الصالح جداراً أراد أن ينقض، وكان تحته كنز لهما، وكان أبوهما صالحاً، هذا من رحمة الله التى ظن كثير من الناس أنها

www.ibtesamh.com/vb

لن تدرك الأبناء من بعدهم وكم للشيطان من أباطيل يسوقها إلى نفوس الناس، إن صلاح الآباء ينفع الأبناء بدليل هذه الآية كما قال العلماء، وقد حفظ الله كنز الغلامين الصغيرين ، ببناء الجدار ، وهو القادر على أن يحفظه والناس يرونه بأعينهم ، لكن لا يستطيع أحد أن يمدّ إليه يده ، تصعقه صاعقة ، أو يعتريه شلل ، لكنه درس السماء الذى يجب أن نتعلمه ، وهو ضرورة الحرز وهذه القصة تدل عليه، حيث إنه لو تعرَّى وصاحباه ضعيفان لأخذه أهل القرية لاسيما البخلاء منهم الحريصون على المال يجمعونه من أى مكان دون نظر إلى حلال أو حرام ، ولم يسلّم العبد الصالح كنز الغلامين إليها وهما صغيران ؛ لأن فى ذلك ضياعاً له كذلك فلابد من وجود الحرز ، ووجود العقل من أجل صون المال ، وقال -تعالى- : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ.. (٦)﴾ [النساء]

ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت:

ومن أهم مظاهر رحمة الله تعالى أنك لا تجد فى خلقه من تفاوت، قال تعالى فى آية الملك (٣): ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣)﴾ [الملك] ثم قال - عز وجل -: ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ [الملك]

لو أنك مشيت على الأرض فمادت بك ، أو نظرت إلى السماء

www.ibtesamh.com/vb

فوجدت فيها شرخاً ، أو وجدتها يوماً بعيدة ويوماً فوق رأسك ، أو وجدت الشمس تطلع يوماً وتغيب يومين ، والقمر لا يلتزم منازله، والنجوم مكسوفة ليلة ولامعة أخرى ، والبحر يحمل السفن تارة ويأباها أخرى.. لما كان للحياة من معنى إنما الكون مرتب على نظام بلا خلل ، وأنت جربت الخلل فى صنع الناس ، وفى طباعهم، وعانيت من هذا وذاك أسوأ معاناة ، حيث السعادة التى لا تتم ، والمزاج الذى هو أقرب للتفكر منه إلى الصفاء ، وكم قال لك إنسان: فلان لا أرسو معه على بر ؛ لأنه تارة مهتد وتارات يكون على ضلال، مرة يقول سأسافر وأخرى يقول: سأقيم ، مرة يقول : تزوج، وأخرى يقول: لا نصلح وما هكذا الحال فى خلق الله -تعالى- الذى سحر لنا كل شيء منه -عز وجل- فمن رحمته هذا الكون الذى خلقه على أبدع نظام ، والسوء منا حيث إننا نصنع الاضطراب.

من رحمته - تعالى - الأنعام والدواب:

وتأمل هذه الصورة من صور رحمة الله - عز وجل - حيث يقول في آية النحل (٧): ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾ [النحل]

قال العلماء فى شق الأنفس: التعب والمعاناة ، وقالوا شق الأنفس: شقها نصفين من أجل التعب والمعاناة تصور أن ثقل الإنسان من متاع وغيره حمله على ظهره من بلد إلى بلد ، أتراه يبلغ البلد الذى يريد

www.ibtesamh.com/vb

وعلى ظهره هذا الثقل الذى إن حمل استطاعته منه ومضى خطوات أثقله ما ظنه خفيفاً عليه عند البدء ، انظر إلى حمار سخره الله أو جمل ، كيف يقف أمام صاحبه ، يضع عليه ما شاء من أحمال ، ثم يركبه أيضاً ، أو يركب غيره ، ويمضى فى سهولة وخفة ، ومع ذلك يقصر من الصلاة ، ويفطر فى رمضان وكذا السيارات والطيارات والسفن يحمل عليها ما شاء من أثقال ، فهلاَّ تذكر فى ذلك رحمة ربه، وقال : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون ، فشكر الله - عز وجل - على تلك الرحمة ، واجتهد فى الطاعات مترجماً عن هذا الشكر الذى ليس باللسان وحده أم أنه ركب ومد رجليه واضطجع وظن أن ذلك حق مكتسب له كما يقولون!

ويمسك السماء أن تقع على الأرض:

ومن مظاهر رحمة الله - تعالى - أنه يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه ، قال عز وجل فى آية الحج (٦٥): ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥)﴾ [الحج] تصور أن أحداً يمسك شيئاً حتى لا يقع على رأسك ما هذا الشيء؟ وكم من الزمن يستطيع أن يمسكه عنك ، وتصور أن الله - عز وجل - كما قال: ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ.. (٦٥)﴾ [الحج] بطولها وعرضها - أن تقع على الأرض ومن فيها وما فيها منذ خلقها سقفاً مرفوعاً ، إلى أن يشاء الله عزوجل يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات لا يستطيع العلم

www.ibtesamh.com/vb

وهو سلطان أن يصل إلى عدد صحيح من ملايين السنين ، وكذا يمسك الله تعالى السماء أن تقع على الأرض برغم ما عليه أهلها من فساد ، فلا أحد أصبر من الله - عز وجل - كما جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ

ومن عجب أن كثيراً من الناس لا يتوقف عند هذا المظهر من مظاهر رحمة الله ، إنه فقط يخاف أن يقع فوق رأسه سقف بيته ، وكأنه ضامن أن السماء لن تقع على الأرض ، وقد قال ربنا ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ.. (٦٥)﴾ [الحج] ، فيا من بيده الإذن ارحمنا برحمتك الواسعة فى الدنيا والآخرة.

من رحمة الله لين رسوله:

والله عز وجل يقول فى آية آل عمران (١٥٩): ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ.. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

قل ما شئت فى لين رسول الله ﷺ ورقته ، وحسن عشرته ، شهد له العدو قبل الصاحب بأنه أنبل إنسان ، واحتل مكانة فى قلوب قومه لولا دعوته وعنادهم ، وقل ما شئت فى حسن خلقه وأنه على خلق عظيم ، ولكن تذكَّر أن ذلك كله من رحمة الله به ﷺ. وبنا ، فمن الناس من يتحدث عن ذلك فى معزل ، عن هذا الذى ذكره الله .

وقد رأيت من الأفاضل مَنْ يتحدث عن رحمة رسول الله ﷺ بقومه ، وأنه لم يدع عليهم بعذاب ، ومع الأسف يقولون : لكن نوحاً

www.ibtesamh.com/vb

دعا على قومه ، وهذا لا يليق ، فكل أنبياء الله على رحمة من الله ، ولكنى وجدت لله الفضل فى ذلك حيث قال الله له: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ.. (٣٥)﴾ [الأحقاف] أى نهاه الله تعالى - أن يستعجل لهم العذاب ، فالفضل لله فى الأولى والآخرة ، لكن أحداً من هؤلاء لم يقرأ هذه الآية ، وقد دعا النبى ﷺ على المشركين شهراً فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.. (١٢٨)﴾ [آل عمران] فلم يدع عليهم بعدها ، فسبحان ربنا ذى الرحمة الواسعة ؛ وصلَّى وسلَّم على نبينا الذى رحمه الله ورحمنا.

من رحمة الله تقبيل الصبى:

ومن مظاهر رحمة الله - عز وجل - تقبيل الصبى ، والدليل على ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه من أن رجلاً دخل على النبى ﷺ، وهو يُقبّل الحسن أو الحسين فسأل: أو تُقبلون صبيانكم؟

قال ﷺ : نعم.

قال: إن لى عشرة من الأبناء ، ما قبَّلت واحداً منهم ، فقال له ﷺ : وما أملك لك وقد نزع الله الرحمة من قلبك[1]؟!

ولا شك أن الرحمة بالصغير من هذا الدين العظيم ، والمسألة ليست مجرد طبع قبلة أو قبلات على جبين الصبى والصبية ، وإنما

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٩٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وفيه أن رسول الله قال: « من لا يرحم لا يُرحم » ، وفى رواية عن عائشة أن رسول الله قال: « أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ».

مقتضى القبلة هو الأساس ، ومقتضاها رحمته والشفقة به ورعايته ، فكم من الناس من هو طبّاع قبلات وقلبه قاس عنيد ، إنها مجرد فرقعة أو طرقعة ، ولابد بعدها تمتد بعطاء ، ولا نية فى قلب على رعاية ، فإن رأيت هذه الصورة فاعلم أنها من تمثيل الرحمة ولا رحمة ، فالنبى ﷺ - الذى قبَّل الصبى رحمه ، وأكرمه ، ورفق به وعلمه ، وأوصى به ، وكلمه ، بل إنه كان يأتى الصلاة وينوى أن يطيل فيها ، فيسمع صوت الصبى ، فيتجوز شفقة بأمه ، وكان يسأل طفلاً هو ابن أبى طلحة وأخو أنس لأمه قائلاً له: أبا عمير ، ما فعل النُّغير[1] ، وكان يعطى بواكير الفاكهة أصغر من حضر مجلسه من الأطفال [2] لأنهم لا صبر لهم.

من رحمة الله أن ترفع الدابة حافرها عن ولدها:

فى حديث مسلم ، الذى رواه فى الصحيح يقول النبى ﷺ : (إن الله جعل الرحمة مائة جزء ، ادخر عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، منه أن ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)[3].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٢٩ ، ٦٢٠٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) أخرج الطبرانى فى الدعاء (٢٠٠٥) عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ كان إذا أُتى بالباكورة من الفاكهة قبّلها ووضعها على عينيه وأعطاها أصغر من يحضر من الولدان.

(٣) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٧١٤٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

www.ibtesamh.com/vb

إن الله تعالى الرحمن الرحيم أودع الرحمة كيان البهائم ، فأنت ترى هذا المشهد وغيره ترجماناً لبعض آثار رحمة الله ، أى لبعض آثار جزء من أجزاء الرحمة ، أنزله الله - عز وجل - فى الأرض وقد رأيت منه - كما أخبرك رسول الله ﷺ - رفع الدابة وهى بهيمة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه بأذى ، كأنها ذات عقل فكر فى ضعفه وقوتها ، وذات قلب استشعر بأنه يمكن أن يهلك لو لم تدفع حافرها عنه ، فإذا بها تتقى ذلك ، وترفع حافرها عنه خشية أن تصيبه، وتقف طواعية من أجل إرضاعه وتحنو عليه ، تلحسه ، ومن قديم قالت الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت

فإنما هـــى إقبـــــال وإدبـار

أى أن الناقة التى أخذ الناس ولدها ترعى ماشاء الله لها أن ترعى، فإذا ذكرته لم تعد ناقة وإنما صارت شيئاً يقبل ويدبر ، وما أسوأ أن تتحول الكائنات الحية إلى أشياء.

من رحمة الله أن الذى لا يجد لا شيء عليه:

تتبع آيات القرآن ، وأحاديث الرسول ﷺ وأحكام الشريعة كلها سوف تجد أن من رحمة الله - عز وجل - أن الذى لا يجد لا شيء عليه ، قال تعالى فى آية المجادلة (١٢): ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾ [المجادلة] وفى الحج يقول ربنا عز وجل فى آية آل عمران:

www.ibtesamh.com/vb

﴿ و الله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا.. (٩٧)﴾ [آل عمران]

وقد جاء رجل وقع على امرأته وقد ظاهر منها يسأل النبى ﷺ ما عليه ، فقال له: اعتق رقبة قال: لا أملك إلاّ هذه ، وأشار إلى رقبته قال: صم شهرين متتابعين قال: يارسول الله ، ما وقعت فيما وقعت فيه إلاّ بسبب الصوم ، وكان قد قال لامرأته: أنت علىّ كظهر أمى فى رمضان ، ليتجنبها فى رمضان فقال له ﷺ : أطعم ستين مسكيناً فقال: لا أجد ، فقال له: انتظر ، وجاءه - ﷺ - بتمر فأعطاه إياه ، وقال: أطعم به ستين مسكيناً ، فقال: والذى بعثك بالحق ما فى المدينة بيت أفقر من بيتى ؛ فقال ﷺ : أطعمه أهلك ، فعاد إلى قومه الذين أبوا أن يصحبوه إلى رسول الله ﷺ لقد وجدت عندكم الضيق وسوء الرأى ، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة وحسن الرأى [1] ، وهذا من رحمة الله عز وجل.

دعوة عباده إلى رحمته ، من رحمته:

تذوق هذا المعنى ، وذلك المظهر من مظاهر رحمة الله تعالى كلما وجدت أحداً يصر على عدم الرحمة والعفو تقول له: بالله ، وبالرحم ، ولا فائدة ، فإذا أردت أنْ تتنفَّس الصعداء ، وجدت رحمة رب الأرض والسماء تعلو وتسمو ، فالله - عز وجل - يقول للكاذبين: ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ.. (٣٨)﴾ [الأنفال] ويقول عز وجل:

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٢١٥) والترمذى فى سننه (٣٢٩٩) والحاكم فى مستدركه (٢٨١٥) وصححه على شرط مسلم من حديث سلمة بنت صخر.

www.ibtesamh.com/vb

﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ.. (٧٤)﴾ [المائدة] ويقول -عز وجل-: ﴿ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤)﴾ [النساء] ويقول تعالى: ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.. (٩٨)﴾ [يوسف] وهذه الآية من سورة يوسف لا تجد نورها إلاّ فيها ، فقد تقول لإنسان سوف أشفع لك عند فلان لكن لا تستطيع أن تجزم بأنه قابل شفاعتك قد يخزيك ويعتذر لك أمام الناس ، أمام كل مَنْ هب ودب ، لكن الله واسع الرحمة والمغفرة وقد قال وقوله الحق : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ.. (٦٠)﴾ [غافر] وقال جلَّ وعلا: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ.. (١٨٦)﴾ [البقرة] قل مَنْ يدعوك مبشراً بعطاء ، فجُلّ من يدعوك إنما يدعوك ليأخذ منك ،ولكن مَنْ يدعوك ليعطيك نادر ، و الله عز وجل يدعو عباده لمغفرته وجنته وواسع رحمته.

من مظاهر رحمته تعالى عدم البسط فى الرزق لبعض عباده:

ومن مظاهر رحمته - عز وجل - بعباده عدم البسط فى الرزق لبعضهم ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧)﴾ [الشورى]

وهذه المسألة من المسائل الكبار التى ينبغى أن يفهمها أولو الألباب ، لأن فيها خلطاً بين التوكل والتواكل ، فالمتواكل يصبح قائلاً: لو بسط الله لى الرزق لأفسدت ، فالحمد لله على هذه الحال، أما المتوكل فيضرب فى الأرض ، ويأخذ بكل سبب ويبتغى الزيادة،

www.ibtesamh.com/vb

فإذا حصل من الرزق القليل حمد الله ورضى ، وقال : نعم ، أراد الله بى خيراً ، حيث إنه لو بسط الله لى الرزق لكان منى ما سوف يُدخلنى النار ، ملتزماً بحكمة جليلة تقول « قليل يكفى خير من كثير يُطغى».

لقد رأينا كثيراً ممن أطغاهم المال ، وفى حديث شريف يقول فيه النبى ﷺ : « لاتزوجوا النساء لمالهن ، فعسى مالهن أن يطغيهن »[1] صحيح أنه ﷺ لم يجزم بأن مال المرأة يطغيها ، ولكنه احتمال شاهدنا فى كتاب الله مَنْ سأل الله أن يؤتيه من فضله على أن يصدق ، ويكون من الصالحين ، فلما آتاه الله مالاً بخل وتولى:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ [التوبة] وفى واقع الحياة كم رأينا من منحرفين ، بغوا فى الأرض ، ولولا المال لما بغوا ، هناك بلا شك مفسد فقير ، وهو شرس ، وقد يكون أشد خطراً من الغني المفسد ، وهناك غنى صالح شاكر لله عز وجل ، لا يزيده المال إلاّ شكراً لذى الجلال الذى أتم عليه رزقه.

ولكن نسبة المفسدين الأغنياء أكثر ، بدليل حديث الثلاثة الذين

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٨٥٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ: « لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ولكن تزوجوهن على الدين » ، وهو عند البزار فى مسنده (٢٤٣٨) والبيهقى فى سننه الكبرى (١٣٨٥١).

www.ibtesamh.com/vb

اختبرهم الله من بنى إسرائيل والذى رواه البخارى [1] خسر الأقرع والأبرص وفاز الأعمى ، أى أن الثلثين كانا على فساد ، والثلث هو الذى نجح فى الاختبار.

ولدينا أمم من الناس بمجرد أن أغناهم الله طلقوا زوجاتهم الصابرات وأحباءهم وأصدقاءهم ، وعاشوا فى فلك آخر منهم من تزوج بأخرى شابة ، أوهمته بالحب ، وهى ساعية إلى ماله ، ومنهم مَنْ آثر البغاء والصواحب على الزواج.

بل إن هناك زوجة حين استقلت اقتصادياً مزقت عروة الزوجية ، وخلعت زوجها ، بل إن منهن مَنْ ضربته كما يُضرب العبد ، وانتقمت لنفسها أسوأ انتقام ، نعم كان يضربها ولا عذر له أن كان يحمل فوق طاقته ، حيث العين البصيرة ، واليد القصيرة فلما أغناها الله بميراث أو عمل ربحت منه لم تفكر فى مواساته ، وإنما عذّبته وطردته من حياتها.

بل إن المال تسبب فى استئجار الأولاد ضد أحد الأبوين ، مال الشاب لأبيه الذى قال له: أنا الذى أنفعك لا أمك ، فافعل بها كذا وكذا ففعل ، وعلى العكس ، فمن رحمة الله -تعالى- بعباده أن يختار لهم الكفاية دون البسط إصلاحاً لحالهم ، فلو بسط لهم لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير يعلم العبد أنه داخل فى نور الآية إذا بذل كل جهد وسلك كل سبيل من شأنه

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٦٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه وهو حديث طويل ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٦٢٠).

www.ibtesamh.com/vb

أن يحقق الغنى فلم يحصل إلاّ ما يكفيه ، فليحمد الله - عز وجل - الذى حجب عنه ما يطغيه.

لإيلاف قريش إيلافهم:

ومن مظاهر رحمة الله - تعالى - أن حبب إلى العامل عمله فهو يسعى إليه محباً إياه ، ليجيد ويربح ، ويحمد الله ، قال تعالى: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

ولولا هذه الألفة بين الناس وأعمالهم ما استقامت حركة الحياة.

وهنا كلمة لابد أن تقال ، وهى أنّ الزواج آية من آيات الله ، قال عز وجل: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ [الروم]

وقد ورد فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ليس منا مَنْ خبَّب زوجة على زوجها »[1] أى: أفسد زوجة على زوجها ، فالأصل أن يكون بين الزوجين مودة ورحمة ، ولكى تدوم هذه النعمة علينا أن نصونها ممن يفسدها ، فلا نتيح فرصة لأجنبى يفسد هذه العلاقة ولا أجنبية وكذلك العمل ، يحب الرجل عمله ، ويأتى من يفسد عليه هذا الحب ، أى عمل هذا ؟ من ذا الذى يُزوجك ابنته وهو يعلم أنك إسكافى ،أو مساعد طباخ؟ ما الذى تتقاضاه منه؟ إلى أن يكره

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٧٧) ولفظه: « ليس منا من خبّب امرأة على زوجها أو عبداً على سيده ».

www.ibtesamh.com/vb

العامل عمله ، ويبغضه ، وهكذا ، فمن أجل أن يحب العامل عمله يجب أن ننأى عن هذا المخبّب الذى يفسد عليه حبه لعمله ، وذلك بأن نكرمه ، وأن نحسّن من وضعه ، ونزيد فى راتبه ونشجعه ، ونبث روح التوعية فى الناس بأن أنجشة كان حادى الإبل ، وقد سماه الرسول ﷺ وقال : يا أنجشة رفقاً بالقوارير [1] ، وقال لمن حمل متاع الصحابة: احمل فإنما أنت سفينة ما قال يا سائق ، ولا شيّال ، ولم يسخر من ذى حرفة ، وقبل صاع أبى عقيل الذى لمزه المنافقون ، وقال له: انثره فوق الصدقات.

إن بعض الناس مازالوا إلى اليوم يحتقرون بعض الحرف والأعمال، فالذى تقول له: لقاؤنا غداً بإذن الله فى السابعة صباحاً يقول لك: لست بائع لبن ، ومن يعمل عملاً يحتاج إلى وقت إذا أعجلته قال لك: أنا لست أصنع طعمية ولا كشرى ومؤلف السيناريو يقول لك: أنا لست خياطاً إلى غير ذلك من صور الازدراء ، وكل هؤلاء فى حاجة إلى هؤلاء خصوصاً الزبال ، وهو جامع القمامة والعربجى والسائق الذى يقال فيه : ماركة بنزين وغير ذلك ، فدعوا الناس فى رحمة الله - عز وجل - يحبون أعمالهم لننتفع جميعاً بها يرحمكم الله .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٤٩ ، ٦١٦١ ، ٦٢١٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٦١٨٠، ٦١٨٢) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله قال: ويحك يا أنجشة رويدك سَوقاً بالقوارير.

www.ibtesamh.com/vb

من مظاهر رحمة الله - تعالى - الاختبار:

ومن مظاهر رحمة الله - تعالى بعباده أنهم يُفتنون فى كل عام مرة أو مرتين حتى يتوبوا ويذكروا ويرجعوا بخلاف الاستدراج للكافرين حيث يزيدهم الله ويزيدهم حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذهم الله بغتة، والدليل على أن الاختبار المتكرر من رحمة الله قوله -تعالى- فى سورة التوبة الآية (١٢٦) : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)﴾ [التوبة]

قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٠٣) بالجوع والجدب وقيل «بالغزو» ، والناس اليوم تفتن فى كل يوم إذا نظرنا إلى القول الأول ، ففى كل يوم جوع يزداد وبطالة ، وسوء أحوال ، وقلة موارد ، وفتن لا يعلمها إلاّ الله ، والطريق إلى ذلك ما ذكره المولى عز وجل « التوبة والتذكر » والاختبار من الرحمة والبلاء من العذاب ، وقد قال الله ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ.. (١٧)﴾ [القلم] وقال فى خاتمة القصة: ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ.. (٣٣)﴾ [القلم] وهو غير الابتلاء فالابتلاء بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، فهل تذكر الناس أن الله تعالى بهم رحيم ، حيث اختبرهم بشيء ليعودوا مستقيمين على الطريقة فيسقيهم الله ماءً غدقاً !

ومن مظاهر رحمته - عز وجل - عفوه عن كثير :

فى صورة من صور الرحمة الإلهية نجد فيها الفُلك تجرى فى

www.ibtesamh.com/vb

البحر كأنها الجبال ، ولو شاء الله - تعالى - لأسكن الريح فتظل راكدة على ظهر البحر دون حركة ، ولو شاء لأرسل الريح عاتية تلعب بالسفن يميناً وشمالاً ووراء وخلف لا تنتهى إلى غاية كالعبد الآبق الذى خرج ولم يعد وذلك بمؤاخذة راكبيها ببعض ما ارتكبوا من ذنوب ولو أخذهم الله - تعالى - بكل ذنوبهم لأغرقهم جميعاً يقول الله - تعالى - فى سورة الشورى الآيات (٣٢- ٣٤): ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤)﴾ [الشوري] فمن رحمته أن يرسل الريح بقدر ما تسير به السفن جارية دون إضلال وإهلاك ، ولو ضلت فبسبب ذنوب أهلها ، ولولا عفو الله - تعالى - عن كثير لأهلك السفن وأهلها ومن فى الأرض جميعاً ، قال الله - عز وجل -: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ.. (٤٥)﴾ [فاطر]

فإذا رأيت السفن وغيرها على أتم حال ، تسير على سننها المعهودة من لطف الله فقل الحمد لله ، وإن حدث مكروه فانسبه إلى الناس وقل لهم استغفروا ربكم وتوبوا إليه قبل حدوث ما هو أخطر.

من رحمة الله - عز وجل - الاستثناء:

والاستثناء باب واسع يدل على رحمة الله - عز وجل - ومن ذلك قول الله - تبارك وتعالى-: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ.. (٣)﴾ [العصر]

www.ibtesamh.com/vb

فلولا هذا الاستثناء لكان الحكم عاماً ، وهو أن كل إنسان خاسر لا محالة.

استثنى الله - عز وجل - الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر من الخسارة فهم غير خاسرين ؛ لأنهم مؤمنون، عاملون الصالحات متواصون بالحق ، ومتواصون بالصبر ، وقد قال الله - عز وجل: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ .. (١٢٧)﴾ [النحل] وقال عز من قائل: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .. (١٠٠)﴾ [يونس] ، فالله عز وجل من رحمته هدى المؤمنين إلى الإيمان ، قال أهل الجنة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ.. (٤٣)﴾ [الأعراف] وليس معنى ذلك أن الكافر الذى أضله الله ضل عن جبر ، وإنما هو الذى اختار الضلال لنفسه ، وآثر العمى على الهدى ، فختم الله على قلبه ، وقد قال الله فى مثله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)﴾ [الأنفال] ، لكن الشاهد أن الذى آمن لم يخل من عون الله له ، وكذلك من صبر وعمل الصالحات لولا توفيق الله إياه لما كان منه ذلك كله الذى من أجله استثنى من الخسران.

الاستثناء من الأمر بالسوء:

ويقول الله - عز وجل - فى آية يوسف: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)﴾ [يوسف]

تأمل كيف ربط بين الاستثناء وبين رحمته عز وجل أى من رحمة

www.ibtesamh.com/vb

الله - تعالى - أن تجد نفساً ليست بأمَّارة صاحبها بالسوء ، ويتحقق ذلك طبعاً وفطرة ويتحقق اكتساباً ، فلولا هذا الاستثناء لوجدت السوء فى كل مكان ، وعلى كل فراش ، وفى كل طريق ، وفى كل زمان ، فإن وجدتَ أحداً لا تأمره نفسه بالسوء أو كنت - والحمد لله - من هؤلاء الذين إذا ناموا طووا الضلوع على خير ، وليست فى صدورهم رغبة فى التفكر بالسوء ، ولا فى سواعدهم قطرة من دم تفور بالسوء وعمله ، فقل هذا من رحمة الله - عز وجل الذى استثنى من هذه النفس الأمَّـارة بالسوء نفوساً عصمها من ذلك ، كى تخضر الأرض ، وتنبت الزرع والزيتون ، وحتى تجد من يعمر مساجد الله ، ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، ويفعل الخير ، وينأى عن الشر والسوء، إن مرّ باللغو مرّ كريماً ، وإذا خاطبه الجاهل قال سلاماً، وإذا وجد خيراً عند أحد نظر إليه بغبطة لا بحسد ، وقال : زاده الله خيراً وإياى، وما تمنى لنعمة من زوال.

إلا المصلين:

ومن ثمرات الاستثناء فى الكتاب الكريم والذى هو من رحمة الله عز وجل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢)﴾ [المعارج]

فمن رحمة الله - عز وجل - أنه أخرج بهذا الاستثناء المصلين من أصل جنسهم ، فهم بلا شك من الناس. ولكن ليس بهم هلع

www.ibtesamh.com/vb

ولا فزع ، لا يجزعون عند الشر ، ولا يمنعون عند الخير ، ولو أن إنساناً قرأ الآيات ؛ دون أن يقرأ الاستثناء لأحسَّ بالضياع وقال: أهكذا أنا ، هلع ، أجزع عند الشر وأمنع عند الخير ، لكنه إذا قرأ الاستثناء استبشر خيراً فقد يكون من المصلين ، فإن قيل: إن كثيراً من المصلين على هلع ، وهم بالفعل يمنعون الخيرات ، فالجواب أنَّ ذلك لَيْسَ بسبب عيب فى الصلاة ، وإنما العيب فى المصلى نفسه ، الذى رأى الصلاة مجرد شعيرة يؤديها غافلاً عن روحها وسر معانيها ، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ.. (٤٥)﴾ [العنكبوت] وقد كان - ﷺ - إذا حزبه أمر هرع إلى الصلاة [1] فمن رحمة الله أن شرعها وأودع فيها علاجاً عظيماً لمآس كثيرة وكما أفسد الناس حياتهم فى الزواج وهو رحمة فعلوا ذلك وهم يصلون.

إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

وفى سورة « التين » يقول الله -تعالى-: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦)﴾ [التين] الاستثناء هنا من رحمة الله -عز وجل- بعباده المؤمنين العاملين الصالحات ، فليس كل مَنْ خلق الله يرد أسفل سافلين ، وذلك من رحمة الله عز وجل ، فالذين آمنوا وعملوا

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١٣٢١) عن حذيفة رضى الله عنه قال: « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلَّى ».

www.ibtesamh.com/vb

الصالحات لهم أجر غير ممنون.

وقد ورد فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أن المؤمن إذا تعهد عملاً صالحاً ومرض أو سافر قال الله لملائكته: اكتبوا لعبدى ثواب ما كان يعمل [1] ، يعنى أن أجره غير مقطوع بمرضه أو سفره ، وهذه رحمة من الله - عز وجل - به ، لا تدانيها رحمة ، ألستَ ترى الموظفين فى الدنيا إذا انقطعوا عن وظائفهم انقطعت رواتبهم إلاّ عن إجازة معتادة أو مرضية ناهيك بما ينقص من رواتبهم هذه من حوافز وغيرها ، الأمر الذى يبين لك تلك المفارقة ، فإذا قرأت ما كتبه أبو حيان التوحيدى فى مقابساته عن عدم عد المريض من الناس إذا طال مرضه من الأحياء عند الناس ، فلو أن رجلاً لديه خمسة من الأولاد، ومرض واحد منهم وطال مرضه وسأله أحد عن عدد أولاده قال: أربعة ، لم يحسب المريض الذى طال مرضه ، فانظر إلى هذا ، وانظر إلى رحمة الله الواسعة.

من مظاهر رحمة الله عز وجل فقر بعض الكفار:

من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده أن جعل بعض الكفار فقراء حتى لا ينظر المؤمنون إلى الكفار وهم جميعاً أغنياء ، فتحدث الفتنة ، فيكفروا جميعاً ، ويكون الناس أمة واحدة فى الكفر ، قال

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦٤٨٢ ، ٦٨٢٥ ، ٦٨٧٠) والحاكم فى مستدركه (١٢٨٧) والدارمى فى سننه (٢٧٧٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ولفظه: « ما أحد من المسلمين يُصاب ببلاء فى جسده إلا أمر الله الحفظة الذين يحفظونه فقال: اكتبوا لعبدى فى كل يوم وليلة مثل ما كان يعمل من الخير ما كان محبوساً فى وثاقى ».

www.ibtesamh.com/vb

تعالى فى سورة الزخرف الآيات (٣٣- ٣٥): ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾ [الزخرف]

إن الدنيا لا تساوى عند الله شيئاً ، وقد مرّ النبى ﷺ بشاة ميتة ، رُميت فى مكان فسأل أصحابه: أهانت هذه الشاة على أهلها ؟ قالوا: لولا أنها هانت يا رسول الله لما رموها ، فقال عليه الصلاة والسلام: للدنيا أهون عند الله من هذا على أهلها (١).

معنى جليل ينبغى أن نشمله بفقه ، ومن هذا الفقه أن الدنيا وما فيها ليست بذات قيمة عند الله ، لأن الله - عز وجل - لا يُعجزه شيء خلقه ، وهو خالق الدنيا وما فيها ، ما وجد ربنا تعالى من عناء فى الماء الذى جعل منه كل شيء حى ، قال الله - عز وجل : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ.. (١٥)﴾ [ق] وقال سبحانه: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ.. (٣٣)﴾ [الأحقاف]

إن الإنسان يعز عليه أن ينفق شيئاً تعب فيه ، وغيره فى الغالب يهون عليه الشيء الذى لم يتعب فى تحصيله ، ومن قديم قال الناس: إن فلان يبذر جهة اليمين وجهة الشمال ؛ لأنه لم يبذل جهداً فى هذا

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٢١) وحسّنه ، وابن ماجه فى سننه (٤١١١) وأحمد فى مسنده (١٨٠٤٢ ، ١٨٠٤٩) من حديث المستورد بن شداد.

www.ibtesamh.com/vb

المال الذى بين يديه ، ولو تعب فيه لعضَّ عليه بالنواجذ ، وعلى كل حال ليس الأمر عند الله -عز وجل- كالأمر عند الناس ، فالإنسان قد يبخل بمال لم يتعب فيه ، لكنه مثال للتوضيح ، إن أمر الله إذا أراده قال له كن فيكون ، وهو الذى بيده ملكوت السماوات والأرض ولو أعطى كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكه شيئاً ، أتى النمرود كما قال الملك ، فحاج إبراهيم فى ربه وقال : أنا أحى وأميت ، وآتى فرعون مُلْكَ مصر وقال : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤)﴾ [النازعات] وأتى قارون من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي.. (٧٨)﴾ [القصص] ، وآتى بعض المنافقين الذين وعدوا بأن يصدقوا ، ويكونوا من الصالحين ، فكذبوا وبخلوا وقد أعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، وهو سبحانه وتعالى يعلم مَنْ خلق قبل أن يُخْلق ، أى يعلم حال هؤلاء جميعاً ، فما أمسك عنهم فضله مع علمه القديم بما سوف يصنعون ، وإنما دمّر عليهم بسوء ظنهم ، وكفرهم ، وازدياد طغيانهم وافترائهم ، ولولا تلك الزيادة لظلوا على ماهم عليه من نعيم وحسابهم يوم الحساب كما قال الزمخشرى فى آية: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ.. (٥٣)﴾ [الأنفال]

وكذلك أعطى ربنا - تعالى - عباده المؤمنين الذين شكروا ، فأعطى داود ملكاً وشدّه ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب ، وأعطى

www.ibtesamh.com/vb

سليمان مُلْكاً ما أعطاه أحداً من بعده ، وأعطى يوسف من الملك ، وعلَّمه من تأويل الأحاديث وأعطى أيوب أهله ومثلهم معهم ، وأنزل عليه فراشات من ذهب ، لما جمعها قال تعالى له: ألم أغنك ؟ قال ياربى لا غنى لى عن مزيد فضلك ، وأعطى محمداً ﷺ الغنائم ، أحلَّها له ولأمته ما أحلها لنبى قبله ، ونصره بالرعب ، وبالريح وآتاه جوامع الكلم ، والخلق العظيم وبارك فى الطعام والماء بين يديه ، ﷺ ، فأكل منه المئات من الناس ، وغير ذلك.

وكان فى الصحابة الأخيار أصحاب الملايين كعبد الرحمن بن عوف ، وغيره ، وفى المسلمين فقراء ، وفى الكافرين كذلك.

ومن الفقه أن ينظر ذو العسرة إلى مثله أو إلى الأقل كما جاء فى حديث البخارى ؛ لا أن ينظر إلى الأكثر منه مالاً وولداً ؛ فإن النظر إلى الأعلى يورث الهم وقد يورث الحقد والسوء والحسد ، لكن النظر إلى الأدنى فيه عزاء ، وما زال باب الطمع فى رحمة الله - عز وجل - مفتوحاً أمام السائلين أغنياء وفقراء على السواء ، هذا فضلاً عن نسيان شكر الله على ما أنعم به من عظيم النعم ، فالمشغول بما عند غيره لا يتسنى له الشكر فهو فى نقص لا زيادة ؛ لأن الشكر موعود صاحبه بالزيادة قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾ [إبراهيم]

فأمام الإنسان طريقان: طريق التحسر والهم والغم بالنظر إلى مَنْ

www.ibtesamh.com/vb

هو أعلى منه ، وطريق الزيادة من النعم بالنظر إلى ما عنده ، وهو غير محروم أبداً ، كفاه أن فى رأسه عيناً ترى ، وأذنا تسمع ، وأعضاء تعمل ، وقد يكون زوجاً لأصيلة المعدن ، طيبة العِرق ، راضية بالقليل ، أمينة على ماله ، وولده ، لا تفشى له سراً ، ولا تذيع له خبراً ، ولا تُسمع به أحداً من أهلها وأهله ، وغير ذلك من نعم الله عز وجل.

وهناك صنف من الناس يلجأ إلى تأويل ما يرى تأويلاً يرضى نفسه الطماعة ، فهو يقول: قد يكون صاحب المال مريضاً ، وقد يكون غير سعيد وقد يكون هذا القصر أضيق على أنفاسه من ثقب إبرة ، إنه يبحث عن سبب يقنع به نفسه بأنه فى خير وهذا تأويل فاسد ؛ وخير منه أن يقول : ﴿ قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران]

الرحمة فى التشريع الإسلامى :

ومن مظاهر رحمة الله - عز وجل - أن شرع لنا الدين قائماً على اليسر لا على العسر ، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ.. (١٨٥)﴾ [البقرة] ، وسوف أقدم فى هذا الفصل هذه النماذج الدالة على رحمة الله - عز وجل - فى التشريع الإسلامى.

www.ibtesamh.com/vb

١ - فى الصلاة:

والصلاة ركن الإسلام الركين ، وهى مبنية على اليسر من عدة نواحٍ ، أولها: أنها خمسة فى العدد ، وخمسون فى الأجر والثواب ، كماً جاء فى حديث المعراج .

وثانيها: أن القيام فيها ركن ، ولكن للقادر عليه . وثالثها: أنّ شرطها الوضوء ، والوضوء الأصل فيه الماء فإن لم يجد المكلف ماء تيمم بالصعيد الطاهر ، وفى هذا السياق يقول ربنا - عز وجل: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)﴾[المائدة]

ورابعها: أنها تُقصر وتُجمع فى السفر ، والمطر ، والمرض.

وخامسها: أنها مبنية على التخفيف إذا كانت فى جماعة ، فمن صلى وحده فليُطول ما شاء.

٢ - فى الزكاة:

ومعلوم أن الزكاة من أركان الإسلام ، وهى تحقق نماء المال وطهارته ، وهى من أهم مقومات التكافل الاجتماعى ومظهر الرحمة فيها أنها واجبة على من يملك النصاب وكذلك الجزء المعين الذى يُخرجه عن هذا النصاب ، وهو ربع العشر فى المال والذهب والفضة ، وفى زكاة الزروع والثمار إن كانت الأرض تُسقى بماء الراحة ، من مطر ، ونهر جار دون تكلفة فزكاة الزرع العشر ، وإن سُقيت الأرض بتكلفة فالزكاة نصف العشر.

www.ibtesamh.com/vb

٣ - فى الصيام:

والصيام فى دين الله إما فريضة وإما تطوع ، فالفريضة رمضان ، والنذر ، والتطوع ما عداهما ، من نحو صوم يومى الاثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر ، ويوم عرفة لغير الحاج وغيرذلك.

ورمضان كما قال الله - عز وجل - أيام معدودات وكان الصوم فيه متواصلاً إذا نام الصائم قبل غروب الشمس ، وقد خفف الله من رحمته بعباده ، فقال: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ.. (١٨٧)﴾ [البقرة] وهو للقادر عليه ، يدرب الطفل عليه دون تعسُّف وقهر حتى لا يكرهه ، ويفطر فيه المريض والمسافر ومن حمل عليهما من الحائض والحامل والمرضعة والشيخ الكبير ومن يعمل فى الأعمال الشاقة.

٤ - فى الحج:

وفى الحج مظاهر متعددة من رحمة الله بعباده أولها أنه مرة واحدة فى العمر ، قال النبى - ﷺ - لمن سأله : أفى كل عام يارسول الله ؟ « لو قلت نعم لوجبت »(١) وأنه لا يجب فى هذه المرة إلاّ على القادر عليه مادياً وبدنياً لأنه جهاد بالمال والبدن ، قال -تعالى-: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً.. (٩٧)﴾ [آل عمران] ومن رحمته

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٣٢١) والنسائى فى سننه (٢٦١٩) وأحمد فى مسنده (١٠٦١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

www.ibtesamh.com/vb

تعالى جعل له ميقاتاً زمنياً فيه اتساع من أول شوال إلى تاسع ذى الحجة: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ.. (١٩٧)﴾ [البقرة] ومن رحمته - تعالى - فيه أن جعل لكل طريق ميقاتاً يُحرم منه الحاج والمعتمر ، فلا يزدحم الناس فى مكان واحد . ومن رحمته تعالى أنه جعل الإحرام إفراداً وقِراناً وتمتعاً هذا مع ما فيه من تقديم وتأخير فى الأعمال يوم النحر وفى غيره ، وكفاك قول النبى ﷺ : « افعل ولا حرج »[1].

قراءة القرآن لغير المتوضئ :

جمهور الفقهاء على أنه يجوز للمسلم غير المتوضيء أن يقرأ القرآن الكريم ، ودليل الجمهور حديث أن النبى - ﷺ - كان لا يحجبه عن قراءة القرآن شيء إلاّ الجنابة [2] (بداية المجتهد ١/ ٤٠)

ونحن مع الجمهور ؛ لأن كثيراً من الناس يتشددون وضحية التشدد أمم من الناس لا يستطيعون أن يحافظوا على الوضوء ، ولا أعنى بذلك سلس البول ونحوه من المرضى ، وإنما هناك الكثيرون، الذين يمكن حملهم على سلس الريح ، أى الذين يخرج منهم ريح باستمرار ، والأصل رفع المشقة عن الناس ، نعم هناك فريق من الفقهاء يرى أنه لابد من الوضوء عند قراءة القرآن بدليل أن النبى

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٤ ، ١٧٣٦) ومسلم فى صحيحه (٣٢١٦ ، ٣٢١٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه البزار فى مسنده (٧٠٨) عن على بن أبى طالب قال: كان رسول الله يقضى حاجته فيقرأ القرآن ويأكل معنا ولم يكن يحجزه عن قراءة القرآن ليس الجنابة ، وكذا أبو يعلى فى مسنده (٣٤٨).

www.ibtesamh.com/vb

- ﷺ- لم يرد السلام على مَنْ سلَّم عليه قبل أن يتوضأ ، لكن الجمهور عوّل على الحديث الذى ذكرت وقالوا إنه ناسخ لهذا الحديث ، فالأوْلى القول بقول الجمهور تيسيراً على الناس ، أضف إلى ذلك أن من وساوس الشيطان أن يقول للمسلم: إنك غير متوضيء ، فلا تصح تلاوتك ، من باب (بركة يا جامع).

قراءة ما تيسَّر من القرآن :

ومن رحمته - عز وجل - أن وجَّهنا إلى قراءة ما تيسر من القرآن الكريم لعلمه - تعالى - بضعفنا ومرضنا ، وضربنا فى الأرض من أجل الحصول على رزقنا ، قال تعالى فى آخر آية من سورة المزمل:

﴿وَ اللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ.. (٢٠)﴾ [المزمل]

وما تيسَّر يمكن أن يكون عدداً محدوداً من الآيات ، ويمكن أن يكون سورة ، حسب طاقة الإنسان ، وقد روى مالك فى الموطأ وغيره عن النبى - ﷺ - قوله: « اكلفوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملُّوا »[1].

ومَنْ يتابع بعض المتحدثين من هواة الدعوة ييأس ، ويظن نفسه هالكاً لا محالة ؛ إذ إنهم يدعون الناس إلى ختم القرآن كل ثلاث ليال أو كل أسبوع ، وإلاّ ختم على قلوبهم ، فيا سعادة من فقه ، ويا تعاسة

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١٣٧٠) والنسائى فى سننه (٧٦٢) وأحمد فى مسنده (٢٤١٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها.

www.ibtesamh.com/vb

من عمى عن هذا الفقه ، حيث سدّ الطريق أمام رحمة الله ، وأرهق الناس ، ومن الفقه تحبيب الناس فى رحمة الله عز وجل.

من سها سجد للسهو :

ومن رحمة الله فى التشريع الإسلامى الذى هو أحكام الشريعة أن مَنْ سها فى صلاته سجد للسهو سواء أكان عن زيادة أو نقص ، سواء أسلم ثم سجد ، أم سجد قبل أن يسلم على خلاف بين المذاهب.

وسجود السهو سجدتان ، وهما من رحمة الله تعالى بمَنْ سها فى صلاته بزيادة أو نقص ، وهو إذا شك هل صلى ركعتين أو ثلاثاً بنى على اليقين ، وهو الأقل وسجد للسهو ، وقد رأى الشافعى أنه يسجد للسهو إذا ترك التشهد الأول الذى هو سنة ، ورأى أبو حنيفة أنه يسجد إذا نسى تكبيرات العيد ، وعلى الجملة فمن رحمة الله بعباده أن سنَّ لهم وشرع هذا السجود الذى يجبر به سهوهم ، والسهو لا يسلم منه بشر ، ولو لم يشرع سجود السهو لكان على الساهى أن يعيد الصلاة لمجرد السهو ، أو كان الحكم أنه آثم ، فيزداد الأمر صعوبة .

وقد كان عمر - رضى الله عنه - يقول:

إنى لأحسب الزكاة ، وأُعد الجيش وأنا فى الصلاة . طبعاً لا يتعمد ذلك ، وقد تذكر النبي ﷺ مالاً وهو فى صلاته ، فلما فرغ منها أسرع لينفقه ، أذكر ذلك لأن بعض الناس يظن ذلك مفسداً للصلاة ومضيعاً لإيمان صاحبها .

www.ibtesamh.com/vb

التيمم عند وجود الماء مع الحاجة إليه :

وجميع الفقهاء على أن المسلم إذا كان فى حاجة إلى الماء حبسه ليشربه ، وتيمم ، وهذا من رحمة الله - عز وجل - بالعبد ما قال يتوضأ بالماء ضرورة ، وليمت عطشاً ، وإنما قال له: احبس الماء من أجل أن تشربه ، وتيمَّم بالتراب وأنا أقبل منك صلاتك.

واتفق العلماء على أنَّ المتيمم إذا تيمم ثم وجد الماء توضأ بالماء إذا كان وقت الصلاة باقياً ، أما إذا وجد الماء بعد أنْ صلَّى بالتيمم فلا إعادة عليه.

وللإمام الشافعى نصٌّ كالذهب فى كتابه الأم ، قال : إذا وجد بائعاً للماء فى الصحراء أو فى طريق سفره ، وكان يبيعه بأغلى من ثمنه ولو قليلاً فلا يشترى منه ، ويتيمم وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ.. (٧٨)﴾ [الحج] انظر إلى هذا الذى يستغل حاجة الناس للماء لا تشتر منه ، وتيمم ، فالدين يُسْر والدين رحمة.

وإذا توضأ صلى بوضوئه هذا ما شاء من الصلوات ما لم ينتقض الوضوء بخروج شيء من أحد السبيلين أو بنوم ثقيل على غير هيئة المتمكّن ، أو بذهاب عقل أو بإغماءة ، أو بلمس أجنبية بدون حائل.

www.ibtesamh.com/vb

من مظاهر رحمة الله -تعالى- فى التشريع الإسلامى أنه مشروع لطلب رحمته صلاة :

ما أظن حكمة مشروعية صلاة الاستسقاء إلاّ من رحمة الله بعباده، يدعوهم إلى طلب رحمته بصلاة ركعتين ، ودعاء ، وصدقة يتقربون بذلك إليه وحده ، فيمطرهم بغيث نافع من السماء تحيا به أنفسهم وأرضهم وأنعامهم ، ومن العلماء من يرى أن الاستسقاء دعاء وتحويل رداء بلا صلاة ، ومنهم من يقول: للاستسقاء صلاة . قال الإمام ابن المنذر: ثبت أن رسول الله - ﷺ - صلى صلاة الاستسقاء وخطب.

وفى تحويل الرداء تيامن بتحويل الحال ، من الجدب إلى الرخاء ، ومن اليأس إلى الأمل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ.. (٢٨)﴾ [الشورى] والكلمة التى يجب أن تكون نصب الأعين هنا أنه قَلَّ فى الناس مَنْ يدعو غيره إلى رحمته ، أو يدعو مخاصمه إلى مصالحته ، لكن الله أرحم الراحمين يدعو عباده إلى رحمته ، فإن طال العهد بالجدب قليلاً شرع لهم سبيلاً إلى رحمته ، وقد قال -عز وجل-: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (٦٠)﴾ [غافر] فما أعظم رحمة الله - عز وجل - التى إذا غابت نادت من لا غنى لهم عنها حتى تعود إليهم ، وفيها حياتهم.

وهكذا نجد الرحمة فى التشريع الإسلامى شاملة كل أبوابه وهى تحتاج إلى عمل مستقل ، اكتفيت بهذه النماذج من باب ما لا يُدرك كله لا يُترك كله.

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الثالث

ظرفية الرحمة

www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb

ظرفية الرحمة

حين تقرأ القرآن الكريم تقف عند معنى كبير من المعانى التى تكشف لنا حقيقة مهمة هى حقيقة التجافى بين الناس ، هناك شيء ما يبحث عنه الدارسون وعلماء الاجتماع والمهتمون بأحوال الناس ، ماذا جرى للناس؟ لم هذا العنف وهذه الوحشية ، لقد تغير الناس ، وكثرت الجرائم ، وصارت بشعة ، والحق أنّ الذى غيّر الناس ، هو هذا التجافى الذى سببه الأصيل أن الرحمة بينهم لم تعد رحمة حقيقية ، أستطيع أن أقول إن ظرفية الرحمة غير موجودة ، وهذا هو الذى جعلنى أكتب هذا الفصل عن ظرفية الرحمة ، ومعناه باختصار أن تشمل الرحمة الإنسان كما يشمل الظرف المظروف ، لا أن تكون رحمة هامشية أو يكون الإنسان على هامش الرحمة ، فيكون بمثابة سائل أعطيناه رغيفاً ، وجنبناه بيوتنا ومجالسنا فهو يمسك بالرغيف على هون ، ولولا الجوع القاتل لرماه وهو يأكل منه على مبعدة ، وعيناه جاحظتان ترمقان مجالسنا ، ترسل إليها بشواظ من نار ، نار ملتهبة تحرق أرواحنا

www.ibtesamh.com/vb

وقلوبنا ، ولا يغرنك أنه شاكر ومقدر وراض ، وأنك لو لاحطته لرأيته ينظر إليك بابتسام فلا تصدق أنه يبتسم ، إنه يرسم الابتسامة كما رسمنا نحن له الرحمة ، وكل شيء رسمناه عرض يزول بخلاف ما لو نقشناه وطبعناه فى صدورنا ولعل سائلاً يقول : وما صلة هذا بالرحمة فى القرآن الكريم ؟ أقول : لذلك صلة كبيرة ، حيث إن الرحمة الإلهية فى كتاب الله جاءت ظرفاً للمرحوم ، وأعنى بالظرف الحرف « فى » الذى أصل معناه الظرفية ، فهناك فرق بين أن تكون فى رحمة الله ، وبين أن تكون على جانب رحمة الله ، أن تكون فيها وأن تمر بها أو عليها ، كالفرق الذى تجده بين كونك جالساً مع قوم يأكلون وأنت تأكل معهم ، وبين أن تمر عليهم قائلاً: السلام علكم - إن ردوا عليك وقالوا تفضل معنا ، حتى وإن كانت كما يقولون دعوة مراكبية ، لأنهم يركبون البحر ، فإن دعوك إلى طعامهم فلست ببالغه ؛ لأنهم يأكلون وهم يبحرون أما أنت فعلى الشاطىء ، وبينك وبينهم مسافات ربما كان هذا سبب إطلاق الناس هذا التشبيه أو المثل.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا.. (٧٥)﴾ [الأنبياء] وقوله تعالى: ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا.. (٨٦)﴾ [الأنبياء] وقوله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ [آل عمران] وكذا سائر القرآن الكريم: ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤)﴾ [القمر]

وقد جاء التعبير بـ « فى » مع الأنبياء ، كما فى آية المائدة: ﴿ وَإِذْ قَالَ

www.ibtesamh.com/vb

مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)﴾ [المائدة] قال: جعل فيكم أنبياء وفى آية الحجرات يقول الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ .. (٧)﴾ [الحجرات] والنبى ﷺ يقول: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ.. (١٦)﴾ [يونس] حتى فرعون نراه يقول لموسى - عليه السلام - « ولبثت فينا من عمرك سنين »

إذاً الموضوع خطير ، حتى فرعون ، وأبو جهل ونحوهما إنها قضية مجتمع عرف معنى الظرفية ، كان الكفار يقولون للنبى ﷺ : أنت تعلم مكانك منا ، إن كنت تريد المال جمعنا لك أموالنا حتى تصبح أغنانا ، وإن كنت تريد الملك جعلناك ملكاً علينا ، وإن كان بك داء أنفقنا أموالنا فى الطب من أجلك.

يعنى: دعك من هذا الأمر ، وبعض الناس يرى ذلك من قبيل المساومة ، ولست أراه اليوم كذلك لأن هذا ما تكشَّف لى من خلال « فى » وهذه الكلمات تعبير صادق يحقق معنى « فى » ، والذى قاله أهل مكة للرسول - ﷺ - يلتقى معه قول أهل المدائن لرسول الله - صالح عليه السلام - : ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا.. (٦٢)﴾ [هود] انظر « فينا »

إنك لو كنت « فى » قوم قالوا لك ذلك نجمع لك المال ، نجعلك ملكاً علينا ، نعالجك ، وإذا لم تكن فيهم قالوا لك اضرب رأسك فى الجدار لن نطيعك ، ولن نؤمن بك وما أكثر الذين يقولون لك: اضرب رأسك فى الجدار حقيقة أو حكماً ، حقيقة بأن يقولوا لك

www.ibtesamh.com/vb

هذا صراحة ، وحكماً بأن تراهم قادرين على عونك ولا يفعلون لك شيئاً إلاّ مص الليمون ، بل وربما زادوك ألماً ووجعاً ، حين يقول لك بعضهم:

لا إله إلاّ الله ، لا حول الله .. وماذا ستفعل يا مسكين ؟ ألهذا الحد وصلت ؟

ناهيك بمن يرحب بك فى المستشفى ليعالجك ولكن على بابه يجب عليك أن تدفع التأمين ، وإن كنت موظفاً يجب أن تحضر معك كتاباً مختوماً تقول فيه مصلحتك التى تعمل بها إنها موافقة على إجراء عملية جراحية ودفع ثمن التكلفة ، وإلى أن تحضر هذه الورقة نحن فى انتظارك ، أو المقابر فى انتظارك إن تأخرت فلا علينا ، هذا هو النظام ، فإن كنت جاهزاً فنحن فى خدمتك ، وبعد إجراء العملية أنت وحظك ، فإنا لن نتابعك المتابعة المطلوبة لأننا نجرى عملية لغيرك ، أى نقبض من جديد ، وسوف نضعه فى الحجرة المجاورة لك ، ويعطيك وإياه ربنا طول العمر ، فالثالث والمائة والألف فى الطابور ولا وقت عندنا إلاّ للجديد ، الطامع فى الصحة والسلامة ، ونحن لانهمل ، وإنما نبذل كل ما فى وسعنا.

وبشيء من التمهل نجد قول الله تعالى فى آية الأحزاب (٢٠) وهى فى المنافقين: ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)﴾ [الأحزاب] قال تعالى:﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ.. (٢٠)﴾ [الأحزاب]

www.ibtesamh.com/vb

وكذلك جاء قول الله - تعالى -في آية التوبة (٤٧) في شأن المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله - ﷺ - في غزوة العسرة (تبوك) حيث قال عز وجل: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)﴾ [التوبة] فقال: لو خرجوا فيكم ، وهذا يدل على معنيين الأول: أن المنافقين في الظاهر فينا كالمؤمنين الخُلَّص وهم ليسوا كذلك.

والثاني : أن المسلمين لا يعرفون إقامة ولا ظعناً إلاّ على معنى «في» فهم في ظرف المعية الندية غدوة وعشية إقامة وشعراً.

فما قال الله -عز وجل- : «ولو كانوا معكم» ، ولم يقل كذلك : لوخرجوا معكم .

وإنما قال في الموضعين « فيكم » على خلاف ما قال المنافقون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، قالوا كما جاء في آية الحشر: « لئن أخرجتم لنخرجن معكم » لم يقولوا: فيكم ؛ إنهم يعرفون الأبدان لايعرفون الوجدان ، ومن ثم قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ.. (١٢)﴾ [الحشر] حتى معية الأبدان لن تتحقق و الله عز وجل كما قال في آية الحجرات ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ.. (٧)﴾ [الحجرات] قال كذلك في آية النساء : ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً.. (١٠٢)﴾ [النساء]

www.ibtesamh.com/vb

فقال تعالى هنا: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ.. (١٠٢)﴾ [النساء] كما قال : « واعلموا أن فيكم رسول الله » وعبد الله بن رواحة شهيد مؤتة رضى الله عنه يقول [١].

وفينا رسول الله يتلو كتابه .

حتى البنات اللاتى نذرن أن يضربن بالدف ويغنين شيئاً إن رجع النبى - ﷺ - سالماً ، أنشدن : وفينا نبى يعلم ما فى غد .

فنهاهن عن ذلك ؛ لأن الغيب لله وحده ، لكن قلن « وفينا »

والاستطراد فى ذلك يؤدى إلى جمع عظيم ويحتاج إلى مجلدات، لكن فيما سبق كفاية ، وفيه الشاهد على ظرفية الوجود ، فهل بقى هذا المعنى قائماً اليوم؟

- لا أظن ، بدليل معطيات الحياة من الكآبة والسآمة والملل ، والإحساس بالوحدة رغم كثرة العدد.

ما لك تبقى وجهك فى وجهى ؟:

إلى هذه الدرجة لا يطيق بعضنا بعضاً !

قالت لى فتاة جامعية: لقد سعيت فى تزويج أمى بعد وفاة والدى ، لأنه ليس من المعقول ولا المقبول أن تجلس أمامى وجهها فى وجهى هكذا !

انظر ليس من المعقول ولا المقبول أن تجلس ووجهى فى

(١) أورده البخارى فى صحيحه (١١٥٥) عن أبى هريرة.

www.ibtesamh.com/vb

وجـهها ؛ كره بعضنا وجه بعض ، ولو كنا فى ظرفية الرحمة لكُنّا كما قال يعقوب: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ.. (١٣)﴾ [يوسف] أى : إن غاب وجهه عن وجهى أحزننى ذلك ، صحيح لابد أن تفترق الوجوه لقضاء الحاجات ، أما الأغلب فأنْ تعود الوجوه للتلاقى فحين يعود وجه مَنْ تحـب تعود إليك الدنيا بكل ما فيـها ، فلا شـيء تفتقده الآن ، فأى شيء تفتقد وقد حضرك كل شيء.

حتى حين يغيب وجهه عنك إنما يغيب عن عين وجهك أما عن عين قلبك فلا يغيب أبداً ، ما أنسيته فتـذكره ، وما غـاب عنـك فتفتـقده ، وإنما هو أمام عينـك وإن غاب ، متربع على عرش قلبك ، يسرى فى دمك ووجدانك ويروى فيك معنى الحياة ، فإن طال غيابه عنك ذرفت عيناك الدمع الذى قد يؤدى إلى بياضهما فلا ترى : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ.. (٨٤)﴾ [يوسف] فإن جاءك بشير بشيء منه رد ذلك الشيء إليك بصرك: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦)﴾ [يوسف]

وقد ذكر العلماء فى حديث البخارى الذى رواه ابن عباس من قصة إبراهيم وولده إسماعيل - عليهما السلام - أنَّ إبراهيم حين زار ولده إسماعيل ولـم يجده ، وترك له السلام عاد إسماعيل فسأل امرأته: هل زارنا اليوم من أحد؟ قالوا: إنه سألها هذا السؤال لأنه شم ريح أبيه فى بيته ، جمعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤)﴾ [يوسف] أى : لما فصلت

www.ibtesamh.com/vb

العير من مصر ، شم يعقوب ريح يوسف وهو فى مكانه البعيد.

فهل عاد أحد اليوم يشم تلك الريح !

لا شك أنها غابت ، هى موجودة ، لكنها غابت عن حواس الناس ، وما كانت لتغيب لولا أنها غابت عن الوجدان ، وهذا يدفع بنا إلى معرفة سبب ذلك الغياب ، سل أى إنسان: هل تغيَّر الناس؟ وسوف يجيبك دون تردد: نعم ، تغيروا ، فإن سألت : وما سبب هذا التغير ؟ فسوف تجد إجابات متعددة ، متنوعة ، تتقارب حيناً وتتباعد حيناً آخر.

سوف تتقارب الإجابات برغم اختلاف مستويات الذين يجيبون، عند مسألة المادة ، والمال ، فكثير من الناس يزعمون أن الحياة صارت مادية ، أى صار الناس يعنون بأمر الأموال أكثر من عنايتهم بمسألة الحب والعواطف ورائحة المحبين التى أشرت إليها عند يعقوب وإسماعيل - عليهما السلام - وسوف تسمع مثل هذه الإجابة: إنها ظروف الحياة وربما سمعت مثل هذه الإجابة : إنها العولمة ، يقصدون بهذه الكلمة أن الفرد من الناس صار حاملاً هموم العالم ، فاتسع عليه الأفق ، فهو يتأثر فى حياته بما يصيب أمريكا وبنوكها من أزمة مالية ، وهبوط البورصة فى بلد يزلزل اقتصاد كثير من البلدان ، فلم يعد ابن مصر هو ابن مصر وحدها ، ولكنه ابن مصر ، وابن المتغيرات الدولية ، وغير بعيد أن تسمع أن سبب التغيير هو الحياة نفسها ، فإن سألت: ما معنى أن الحياة نفسها هى سبب التغيير ؟ قيل لك : الحياة ليست كالحياة التى شم فيها المحبون

www.ibtesamh.com/vb

رائحة الأحبة ، فإن قلت لمن يقول لك ذلك: هلاّ وضحت لنا بشيء من التفصيل قال لك: نعم ، كانت الحياة أيام هؤلاء حياة بسيطة غير معقدة ، لم تكن فيها فواجع ، ولا إسرائيل ، ولا حرب نووية ، ولا معدات حديثة ، ولا ، ولا ، إن الحياة منذ زمن أمي وأمك قد تغيرت، تذكر أن الجيران كان بعضهم لبعض ، واليوم أغلق كلٌّ جار بابه عليه ، ويبقى السؤال ولماذا أغلق بابه عليه؟

يجيبك : لأن الناس قد تغيَّروا لقد كان الرجل يسافر ويترك أولاده أمانة عند جاره ، يحفظهم بعينيه ، والآن لم يعد هناك أمان لأحد ، فتعود إلى ذات السؤال: وما الذى نزع الأمان من صدور الناس؟ أهم الناس أنفسهم؟ أم هى الحياة ، أم هى العولمة ، وسوف تسمع القضية الأزلية: الإعلام هو السبب لأنه عرض أسوأ ما فى الناس من جرائم ووحشية ، وألهب العواطف ، وأشاع فى الناس الرعب والفزع ، وقدّم مسلسلات وأفلاماً كلها عنف ،واغتصاب ، ومخدرات وصور حياة للشباب لا صلة لها بالواقع ، من قصور شامخة وسيارات فارهة، وطيارات خاصة ، وأفهمهم أن الحياة الرغدة والعيشة الناعمة لا تتحقق إلاّ بأن تأكل أخاك إن وجدتَ سبيلاً إلى أكله ، وأن تسبقه فى الغداء فتتغدى به قبل أن يتعشى بك ، وإن ضحكوا عليك فى النهاية مدة دقيقة بأنك لأخيك وأن أخاك لك ، فقد شيعوك بالعداوة، وأغرقوك فى دم أخيك الذى صعدت فوقه إلى أعلى حياة ، فأنت متشبّع غرق فى الضلال ، فما عسى أن تفيدك كلمة النهاية.

www.ibtesamh.com/vb

وإذا سألتَ أهل الإعلام فسوف يقولون لك : نحن نصور الواقع، لم تحدث واقعاً ابتداء ، فالذى تراه على الشاشة واقعى ، ونحن نقدمه لنعالجه ، وسوف يقولون لك: إن فيلم كذا كان سبباً فى قانون كذا ، ومسلسل كذا كان سبباً فى لائحة كذا ، تغيرت من أثر المسلسل.

والحق أن شيئاً تسرب خُفْية إلى الناس فى لحظة من لحظات الميل إلى التغيير ، بدأ كما يبدأ كل جديد ، شرارة صغيرة ولم يجد من يقف أمامها ، أذكر أنَّ رجلاً ضجر ذات يوم فقال لأهله: والله لأتركن لكم البلد بما فيها ، وأعيش وحدى فى مكان بعيد ، فكأنه قذف بصاعقة فى قلوبهم ، نظروا إليه كالذى يُغشى عليه من الموت تكلمت أعينهم قبل ألسنتهم ، واعتذروا إليه جميعاً ، كلهم بلا استثناء دنوا منه كما تدنو القطط الوليدة نحو أمها ، استعطفوه واسترحموه ، حتى رحمهم ، بل إنهم بكوا ، وبكى هو قبلهم حتى انتحب ، ودعا على لسانه الذى نطق بهذه العبارة وقال: كيف قلتها؟ وكيف يتسنى لى العيش بدونكم ، احتضن صغيرته التى ساقتْها روحها البريئة فى هذا السياق إلى رجليه ، طفلة لم تتجاوز الرابعة من عمرها ، كأنها فهمت ما قال ، وأعظم درجات الفهم أن يصل المعنى إلى الإحساس فيستقر فيه استقرار الغيث فى الأرض المتعطشة الصالحة للإنبات .

لقد شاهدت الطفلة أمها وإخوتها ، وجدتها وقد أصابهم ما أصابهم ، كما قال الله عز وجل فى فرعون وقومه: ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ

الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ.. (٧٨)﴾ [طه] إنها مثل (ما) المبهمة التى تفيد التهويل ، والتهويل معنى إذا استقر فى النفس أتى ثماره ، على بكارته ، لا على حجمه ، فما صغّر الأشياء إلاّ أحجامها ، ومعرفة وزنها ، حتى وإن كانت الأرقام عظيمة .

نعم ، استقر معنى التهويل فى صدر الطفلة ، فقد بكت قبل أن يبكى أحد ، وولولت قبل أن تعرف الخطب الجلل حين بكت أمها ، بكت أمها وصرخت هى ، فهى أشد إحساساً من أمها بالموضوع الذى التقطت منه بعض المفردات ، لكن لا تستطيع أن تنشيء فيه موضوعاً فضلاً عن قصيدة عصماء ، عظيمة المعانى والبناء ، والموسيقى والصورة الفنية التى هى آية إبداع.

وهدأت العاصفة ، ولكن لبراكين النفوس توابع أعنف من براكين الجبال الممتدة ، ظل مَنْ حوله على مدى أيام وليال يناشدونه بالله وبكل غالٍ ألا يفكر فيما قال ، وأن يفعل بهم ما يشاء إلا أن يتركهم ويمضى حيث يشاء ، فهم لا يستطيعون العيش بدونه ، لا تقل إنه العاقل الكاسب ، وهم عجزة ضعاف ؛ فإنهم كانوا حوله فى الحقل، يزرعون ، ويبذلون جهداً أعظم من جهده الذى يبذله ، وهم فى الدار يعملون ما لا يستطيع هو أن يعمله ، فزوجته هى التى تحلب الجاموسة ، وتقنى الطيور ، وتصنع الجبن والزبد ، وتعجن وتخبز وتطبخ وتصنع المبروم (الكسكسى) الذى يحبه ، ولو ركب فرس عنترة ، ومضى به إلى بلد بعيد فلن يجد من يصنعه مثلها ، وأولاده

آية فى الأدب ، لو مرَّ على غيرهم فلن يجد مثلهم ، وإن كان جميع مَنْ يقابل من المؤدبين ، إنهم يستطيعون العمل ، والكسب بدونه ، ولكن القضية هى عدم تصور الحياة بدونه.

إنه طعم الحياة ، الذى اعتادوه ، ومن تعوَّد شيئاً أدمنه ، إن لهذا الرجل الصدارة ، فمن يحتل الصدارة بعده ، من يجلس على الطبلية ليوزع منابات اللحم ، ويعطى كل فرد منابه حتى ولو كان ضئيلاً ، يمد يده لفلان ، وفلانة ، وقد وضعت زوجته الطاجن تحت الطبلية كالعادة حتى لا يسبق نظر أحدهم إلى قطعة لحم يأخذها غيره ، إنه يأتى بعد صلاة العشاء فتوضع الطبلية ، وحين ينام ينام الجميع ، وقبل أن يصحو تصحو زوجته لتعد له الفطور ، يتفقد أولاده ، فيوقظ الكبير ويرحم الصغير فيتركه نائماً ، فإن قفز وحده قفز إلى صدره يمطره بالقبلات ، ثم ينام ، أو يصحو على راحته طالباً بعض الأشياء ، إنه يذهب إلى سوق المواشى يبيع عِجْلة صغيرة ويأتى من المدينة المجاورة بالتحف والقماش ، والفاكهة إنه عمود البيت ، فليبق بدون عمل ، المهم أن يكون فى الدار ، حتى يشعر الناس بالاستقرار.

ويبدو أنه ذات يوم قال رجل آخر الجملة نفسها فلم يجد لها أثراً ، أى أثر فضلاً عما يشبه العاصفة ، فأعادها على مسامع أهله: أترك لكم البلد بما فيه !

أمشى؟.. أمشى !

www.ibtesamh.com/vb

فردَّت عليه امرأته قائلة: هذه البلد أحسن من غيرها فأصابه شيء من الحياء ، واستغفر الله ، وقال: صدقت لكن ثالثاً سمع « البلد هذه أحسن من غيرها » فألحت عليه كرامته ، وقال: لا و الله غيرها أحسن ، وحمل متاعه ومضى وكان فى صدره صوت يناديه وهو يسمع فيقول له هذا الصوت: لتكن خفيف الروح ثقيل الخُطَا ، فإنهم سوف يمسكون بك ويرجونك ، فلما لم يمسك به أحد ، ولم يرجه أحد مضى وصار له أتباع ، حتى فشا الأمر.

وقد استمعتُ إلى حوار بين شابتين تزوجتا فى أسبوع واحد ، منذ حوالى أربعين سنة ، قالت إحدهما للأخرى: أما زلت عند أبيك !

قالت: بلى .

فضربت صدرها ، وقالت: زوجك يتحمل هذا !

قالت : وماذا فى هذا ، أريح أعصابى منه ومن أمه قليلاً عند أبى.

قالت الأخرى: إنى لو فعلت مثلك لقامت القيامة . لكنها عادت وقالت : ولم لا ؟ يبدو أن الدنيا تغيرت والله فلانة هذه على صواب ، ولم تغرب الشمس حتى كانت فى بيت أبيها.

وهكذا تتغير الأشياء ، ببطء ، حتى تفشو ومن شاذ إلى كثير ، كاللغة يغلب فيها المستعمل على الفصيح أحياناً حتى يتناسى الناس الفصيح ، يقولون فى اللغة الدارجة ، ويظن كثير من الناس أن الدارجة هى العامية أو الضعيفة ، والحق أنها هى التى درج الناس

www.ibtesamh.com/vb

على استعمالها ، أذكر أن أبا الأسود الدؤلى واضع علم النحو ، قابل غلاماً فى الطريق ، تزوج أبوه. فسأله : ما حال المرأة التى تزوجها أبوك؟

فقال الغلام:

حظيت عنده وبظيت

فاستوقفت كلمة « بظيت » هذه أبا الأسود ، وقال للغلام:

- ما معنى بظيت؟

فقال الغلام: هذه كلمة لم تصلك .

فقال أبو الأسود: يا ابن أخى ، لا خير لك فيما لم يصلنى ترى وقد ذكر هذه الرواية السيرافى أحد أئمة النحو البصرى ولم يعلق عليها ، هل اقتنع الغلام بكلام أبى الأسود أم رصّ إلى جانبها كلمات عرفت فيما بعد بالاتباع ، كما فى قولك: «عيط ومعيط» وحاجات ومحتاجات ، أى تتبع الكلمة الكلمة على وزنها دون أن تقصد معناها .

ولك أن تقول: هل بات كثير من الناس مثل أبى الأسود يعنيه أمر اللغة ، وما طرأ عليها من دخيل وغيره فضلاً عن كسر الأوزان والإعراب ، ألم تسمع يوماً بأن عالماً من الجهابذة زوج ابنته من جاهل لأنه يملك سيارة، وشقة كبيرة فى منطقة راقية ولا أود أن أذكرك بما قاله فى نفسه ، ولخاصته ، فأنت تعلم أنه قال: إن هذا الولد الجاهل خير منه ، فقد ضيّع عمره فى العلم دون فائدة.

www.ibtesamh.com/vb

لا شك أنك تستأنس الآن بما ذكرته من الأجوبة المختلفة حول سؤال: لماذا تغير الناس ، وهو أن المال أحد هذه الأسباب ، نعم للمال دخل كبير فى تغيير الناس معظمهم ؛ بدليل قول الله - عز وجل: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ.. (٢٧)﴾ [الشورى] وليس هناك شك فيما أرى أن قطع الأرحام ، وطمس معالم الحب من البغى ، فلا تتصور ما يتصوره كثير من الناس عند ذكر هذه الآية الكريمة من سورة الشورى أن البغى يعنى الفاحشة والخمر وغيرها، وهذا وارد ، لكن ضياع المعانى من البغى بمكان إذا أحسنا النظر ، وأعملنا الفكر ، فالرجل الذى أغناه الله فأهمل زوجته ، وتعرف على بغى وغانية لعوب باغ بلا شك ومعتدٍ ، وقد قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)﴾ [المؤمنون]

والمال بلا شك يعين المفسدين على ابتغاء وراء الزوجة ، من الزنا ونحوه ، ويبعث على السخرية من الفقراء ، وغير ذلك من صور البغى ، وهى كثيرة ، لكن المال - وهو عصب الحياة وقوامها - ما كان ليحدث كل هذا التغيير وحده ، لابد له من معين ، وهذا المعين هو الرغبة فى التغيير ، هناك دائماً ثورة نفسية ، وحديث نفس عظيم وصل إلى حد مخاطبة الشيطان الذى يقول للإنسان: مَنْ خلق الله ؟

ومهما قرأتَ من كتب فى الطب النفسى ، وفى علم النفس ، وفى الفلسفة.. فلن تصل إلى حد معلوم قاطع ، هذا الحد الذى صوَّرته آية واحدة فى كتاب الله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس] سوّى

www.ibtesamh.com/vb

الله - تعالى - النفس ، وألهمها طريق الفجور ، وطريق التقوى ، وكلمة الفجور تتسع لما لا تتسع له كل مجلدات العلوم والفلسفة. ومن كتب فى النفس من المؤمنين ، والملحدين ، فالنفس التى بين جنبيك فاقت إبليس ، وعلى ذلك دليلان.

الأول: قول الله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ.. (٣٠)﴾ [المائدة] فقال عز وجل « طوعت له نفسه قتل أخيه » يعنى لم يطوع إبليس له ذلك.

والثانى: قوْل إبليس نفسه ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم.. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

فسلطان إبليس فى الوسوسة ،والدعوة ، لكن النفس هى التى على استعداد للتلبية ، وهذه النفس التى تبدو فى صدرك الضيق محجمة بأقل من حجمه وفق نظريات الهندسة الفراغية هى أوسع من الدنيا وما فيها ، فهى أشبه بحلم النائم ، جسده على سرير محدود فى حجرة محدودة ، ونسيج حلمه متناثر فى آفاق السموات والأرض، يطوف الدنيا جميعاً فى أقل من طرفة عين ، ويعرج على الأموات، ويرى ما لايرى وهو مستيقظ، وأحياناً يرى وهو مستيقظ ما لايراه نائم.

وهناك ألوان وظلال ، تتلوّن بها النفس البشرية فى أقل من لحظة، ولكن من رحمة الله - عز وجل - أن جعل لهذه النفس المتشعبة الجامعة بين العمق والسطحية والواقع والخيال ، والفجور والتقوى،

www.ibtesamh.com/vb

والطمع والرضا ، والعدل والظلم ، وجميع المتناقضات ، جعل لها من رحمته رادعاً وضابطاً ، فقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾ [النازعات]

فنهى النفس عن هواها هو الضابط الذى يعود بها إلى الحق والعدل والواقع وكل ما من شأنه خيرها ، وخير الدنيا جميعاً ،فالنفس أمام هدى تُقبل عليه وتدبر عنه وأمام هوى تود البقاء فيه أبداً ، والهوى تيار جارف وشر مستطير إن تركت النفس له فسدت وأفسدت كل شيء ، وإن حيل بينها وبينه استقامت وأقامت كل شيء.

النهى بين الهدى والهوى:

ونَهْى النفس عن هواها نهى راق ، عالى المستوى ، لأنه نهى مشرّع ، لا نهى سلطان ظالم ، إنه نهى مَنْ علَّم عباده ، علمهم البيان، ومن قبل علم القرآن ، وهناك فرْق بين نهى الهدى ونهى الهوى ، فنهى الهوى نهى حكيم ، ونهى الهوى نهى مظلم ، لا يعرف سوى كلمة « لا » الناهية ، صحيح أن العلماء من قديم قالوا : إن نهى الدين معناه: افعل ولا تفعل ، وأمر الدين معناه: افعل ولا تفعل . وحكم الله معناه: افعل ولا تفعل .

ولكن العلماء فى ذلك الوقت كانوا يخاطبون أمة تفهم روح الكلام ، أما اليوم فإن الكلام قد طلعت روحه أو كادت ، فالناس فى حاجة إلى شيء من التفصيل الذى منه أقول: إن النهى فى ضوء كتاب الله - تعالى - جاء من أكثر من طريق. منها :

www.ibtesamh.com/vb

١ - أن الأمر بالشيء نَهْي عن مقابله ، فالله تعالى حين يقول: أقم الصلاة ، معناها: لا تترك الصلاة وحين يقول: وبالوالدين إحساناً معناه: لا تُسِىء إلى والديك ، وحين يقول: اتل ما أوحى إليك من كتاب ربك معناه: لا تهجر ما أوحى إليك فما أصعب النهى على النفس ؛ لذا كان الأمر وإن كانت فيه تلك الصعوبة لكنه مألوف إذ الناس يقولون دائماً: افعل ، قُم ، اقعد. كل ، اشرب ، تعال ، هات ، ونحو ذلك دون شعور بالأمر.

٢ - ومنها العرض والحثّ والتحضيض ، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [الصف]

إنه نَهْي للنفس عن هواها عن طريق هواها ، لكن هوى غير هوى ، وجمال غير جمال ، ألا ترى أن الفرق بين معاشرة الأزواج ومعاشرة الزناة هو الحلال والحرام ، إنها معاشرة واحدة ، لكن هوى فى الحلال يُثاب عليه المتعاشرون ، وهوى فى الحرام يعاقبون عليه ، وتلك لقمة تأكلها وهى لذيذة تثاب عليها ؛ لأنها من حلال ، وهى هى إنما تأكلها ناراً: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾ [النساء]

www.ibtesamh.com/vb

وكذلك هنا ، أى لفظ أدل من قول الله - تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا.. (١٣)﴾ [الصف] إنه الحب المشروع ، وليس الحب الذى هو من جعل الهوى والضلال ، فانظر إلى معالجة النفس البشرية ، قال النبى - ﷺ - مَنْ ذهب إلى المسجد وتعلم آية فكأنما حصل على ناقة، والناس يحبون ذلك ، ومن تعلم آيتين فكأنما حصل على ناقتين وحين شعر المهاجرون بتغيير الماء الذى يشربون فى المدينة ، وكانت بئر رومة أعذب وأحب إليهم وأقرب إلى ماء مكة قال النبى - ﷺ - لصاحبها وهو مسلم من غفار: أتبيعها للمسلمين يشربون منها بعين فى الجنة ، فلما اعتذر قائلاً: لا أستطيع يا رسول الله ؛ لأنها قوتى وقوت عيالى قال عليه الصلاة والسلام: «من يشترى بئر رومة وله الجنة فاشتراها عثمان رضى الله عنه» (١).

وحين استولى أبو سفيان على دار آل جحش الذين هاجروا جميعاً عز ذلك على أبى أحمد بن جحش وكان ضريراً فقال له ﷺ : لكم دار خير منها فى الجنة أو ترضى؟ قال: رضيت.إنه ليس توجيهاً للنفس جامداً ، بحيث يلوى عنقها ، كما يلوى عنق مَنْ يؤمر وينهى الأمر والنهى المجردين من العلة ، وإبداء النصح.

٣ - ومن ذلك إبداء العلة لإقناع النفس بالنهى ، ألا ترى إلى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)﴾ [المائدة]

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٤/٣) من قول النبى ﷺ مجزوماً به ، وقد أخرجه النسائى فى السنن الكبرى (٦٤٠٢) من حديث ثمامة بن حزن القشيرى.

www.ibtesamh.com/vb

٤ - وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)﴾ [المائدة]

بمعنى: انتهوا ، لكن جاء عن طريق الاستفهام لتفزغ كل نفس راغبة فى الله قائلة: نعم انتهيت.

٥ - ويأتى النهى للنفس مع الترغيب ، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا (١٧١)﴾ [النساء]

٦ - كما يأتى نهيها مع شيء من الترهيب ، ألا ترى إلى قول الله عز وجل: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾ [المائدة]

وتأمل الآية بعدها (٧٤) من سورة المائدة ، حيث قال الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤)﴾ [المائدة]

فما من ترهيب إلاّ ويصحبه ترتيب فى رحمة الله الواسعة والآن أعود بك إلى هذا التغيير الذى طرأ على الناس فأصبحوا على ضفاف الرحمة لا فى ظرفيتها ، فإن الذى قال لأهله: لأتركن لكم البلد بما فيها ولم ير من صاعقة نزلت عليهم بسبب هذا القول الذى يشبه التهديد ، فمضى بالفعل أو كاد ، إنما حملته نفسه على الإثم، أخذته العزة بالإثم كما أخذتهم أنفسهم كذلك ، فضيع بعضهم بعضاً ، ولاشك أنك ما زلت تذكر تلك الشابة الفلاحة التى قلدت زميلتها فقالت : ومالى لا أفعل مثلما فعلت ، وأجيز نفسى يومين كما أجازت نفسها ، واستراحت من هَمِّ زوجها وأمه ، وكان بوسعها

www.ibtesamh.com/vb

أن تقول: مالى وما لها؟ كالذى جرّب التدخين بسبب أن رأى زميله يدخن ، حتى صار فى دمه ، فلم يستطع التملص منه ، فى البداية قال أو قيل له: إنها مجرد سيجارة ، فصارت سيجارتين ، ثم علبة ثم علبتين ثم ثلاث علب ، حتى أتاه ما أتاه من علل وأمراض وكانت البداية سيجارة.

كذلك الحال بالنسبة إلى المرأة التى كانت إذا خرجت لا يبدو منها شيء ، وكان أول ما بدا منها وجهها ، ثم صار وجهها وبعض شعرات من رأسها ، ثم خلعت غطاء الرأس ، ثم بدا ما بدا منها ، حتى صار البادى أكثر من المستور ، لو كانت فى ظرف الرحمة لنبهها مَنْ يهمهم أمرها قبل أن تكون كما كانت حين خرجت وساقاها مكشوفتان ، ونصف صدرها ، وذراعاها ، ومنهن مَنْ خرجت وبعض بطنها مكشوف ، وكما خلق الله آدم من تراب ، وخلق ذريته من ماء ، خرجت الأولى وشعرها مكشوف ، ثم واساها أجيال كن امتداداً لهذا الكشف ، وحين جرى حوار بين شاب وأخته فى هذا قالت له: أخرج كما أريد ، وألبس ما أشاء ولا دخل لك بى ؛ لأنك لا تُطعمنى ولا تسقينى وبعض الإخوة سمع وسكت ، وطوى الضلوع على شيء من الألم ، وبعضهم ثار ، فقام وضربها وكسرها ، ثم صعب عليه ذلك فصالحها ، وكان من شروط الصلح أن تلبس ما شاءت ؛ لأنها ليست وحدها بالفعل ، وقال له بعض المشغولين بالدعوة: رفقاً بها ، رفقاً بالقوارير وشيئاً فشيئاً يهديها الله

www.ibtesamh.com/vb

- عز وجل - الرحمة الرحمة ؛ فاقتنع.

وهذا الاقتناع نظرى ، ولابد لكل شيء نظرى من قوة ، تحمله من مجرد النظر إلى التطبيق ، نعم الرحمة واللين مطلوبان ، ولكن على طريق البر والعطاء ، وقد صرخت الفتاة ، وقالت لأخيها: لا دخل لك بى ؛ فإنك لا تطعمنى ولا تسقينى ، كان عليه إن أراد إصلاحها أن يتوب عن ذلك ، ويبدأ فيطعمها ويسقيها وينصح لها وفى يديه اللحم والفاكهة ، وفى لسانه العطر ، وبين جوانحه الرحمة واللين ، أما أن يتحدث من هنا إلى ما شاء الله ، وهو عنها بعيد بالمدد الذى يقيم حياتها يكتفى بالوعظ والإرشاد فحسب ، فإن ذلك لا يجدى، والدليل على ذلك ما لا يحصى من آيات الكتاب الكريم ، حيث الجمع بين التكليف والنعم.

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [الضحى]

وقوله عز وجل: ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ.. (١٥)﴾ [سبأ]

وقوله تبارك اسمه: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا.. (٣٦)﴾ [الحج] وقوله عز من قائل: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة]

والله - عز وجل - أعلم بما يصلح عباده: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

www.ibtesamh.com/vb

لكن الأمر عندنا مختلف ، فنحن نريد صلحاً هو وضع قبلات فوق الرأس ، أو الجبين ، وقول « آسف » و « حقك عليّ » ، و«خل قلبك كبيراً » ، « وأنت دائماً تعفو وتسامح » ، ولا تنسَ أنكما على طول العمر أخوان ، أو جيران ، أو زميلان ، ولا تنسَ أنه أخوك الكبير ، ومثل أبيك ،ونحو ذلك من الموضوعات كالنصح والإرشاد والتعليم ، نريد إنساناً يسمع ويطيع دون أن يطلب أجراً ، ونريد عبقرياً دون أن نمده بكتاب وغذاء ،ونريد كل شيء ، دون أن ندفع أى شيء ، وما بهذا تكون الرحمة فضلاً عن الدخول فى ظرفيتها.

دخل زيد بن حارثة فى رحمة رسول الله - ﷺ - فأبى أن يعود مع أبيه وعمه إلى قومه ، وقال وهو غلام : لقد رأيت من هذا الرجل شيئاً وما أنا بتاركه أبداً ، وقال الله فيه: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ.. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

لقد أنعم الله تعالى على زيد وعلى سائر خلقه ، وأنعم عليه رسول الله - ﷺ - فأدخله فى رحمة منه . تروى أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - أنها رأت بطن رسول الله - ﷺ - حين قدم زيد ابن حارثة من اليمن ، وطرق الباب ، فقال ﷺ: مَنْ؟ قال: زيد.

فهبَّ - ﷺ - يفتح له وفى الطريق من السرير إلى الباب كان يرتدى الثياب ، فرأت أم المؤمنين بطنه.

فمن الذى يفتح لك الباب بتلك السرعة وهو يرتدى ثيابه من سريره حتى الباب ، لكى يفتح لك بسرعة ، لأنه فى شوق إلى أن

www.ibtesamh.com/vb

يرى وجـهك ، ويتـلقاك ، لا يتركك بالباب ، لتقف فترة طويلة منتظراً ، والانتظار صعب.

ولعلَّك من الجيل الذى حظى بمثل هذه المواقف من أبويه خاصة، فلما مات أبواه تفرق هو وإخوته أيادى سبأ ، فصار يزورهم فى المناسبات ، ووقر فى قلبه أنهم لا يرحبون به إلاّ من أجل عطاياه ، فإذا حصلوا عليها قالوا له: تراك تأخرت ، فهيا بدون مطرود ، أعانك الله ولا تتأخر عنا.

وقد نادى رسول الله - ﷺ - رجلاً فخرج إليه ، والماء يقطر من رأسه ؛ فقال له - ﷺ : لعلنا أعجلناك والآثار فى ذلك أكثر من أن تُحصى ، يكفى أن سعد بن عبادة - رضى الله عنه - ذهب إليه - ﷺ فسلّم عليهم فردّ بصوت منخفض ، حتى يعيد النبى ﷺ السلام وقد صرَّح له بذلك ، وروى أن النبى ﷺ اشترى جملاً من جابر بن عبد الله ، فقال: أتبيعنى هذا بدرهم يرحمك الله ؟

قال: تكون قد غبنتنى (ظلمتنى) يا رسول الله .

فقال : بدرهمين يرحمك الله .

فقال : تكون قد غبنتنى !

فقال : بثلاثة يرحمك الله .

فقال : و الله ما قصدت الزيادة عليك يارسول الله ، وإنما قصدت أن تزيدنى من رحمة الله ؛ لأنه فى كل مرة يقول له: بكذا يرحمك الله ؟[1].

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١٨٥) وابن حبان فى صحيحه (٤٩١١) بسياق غير هذا.

www.ibtesamh.com/vb

لا شكَّ أن النفس التى هى على استعداد للتغيير تتلقى أدنى إشارة فتستجيب .

ونحن أهملنا هذه الناحية ، فالإهمال هو أهم الأسباب التى أدت إلى التغيير ، فمن دعاه إلى التغيير داع واستجاب له قلنا له: المركب، والباب الذى يفوت الجمل ، وأحسن وكما تحب ،والشمس سوف تشرق من غيرك ، ولن تذلنا بذلك ، وافعل ما بدا لك دعانا إلى هذا بلا شك شعور بالرغبة فى التخلص من كل شيء ظاهره المن والأذى ، فنحن نشعر بتهديد مَنْ يقول لنا ذلك ونشعر فى الوقت نفسه بأننا نقدم أشياء جميلة. ولا بد أن يشعر بها مَنْ تقدمها من أجله ، ومادام لا يشعر فعلى راحته إنْ رأى غيرنا أفضل منا فليذهب إليه.

وهيهات أن أنسى دور الخطاب الدينى فى انتزاع الرحمة من قلوب الناس فى الوقت الذى يدعو فيه الهواة إلى الرحمة ،وليس ذلك من قبيل الألغاز ، إنما هو واقع هذا الخطاب ، الذى لم يتناول الرحمة ركنا أساسياً من أركان الخطاب ، صور الدين للناس على أنه عبـادة فقط ، وشكـل فقط ، وقيام ليل ، وختم القرآن فى ثلاث ليال ، وصور ذكر الله على أنه ذكر باللسان ، وأعداد عظيمة من قول كذا وكذا ، وقراءة كذا ، وبدا بعض المتحدثين غير رحيم فى إلقائه، يخاطب الناس بلسان غير لسانهم ، وبهيئة غير الهيئة التى يعرفونها ويظهرون عليها ، كل ما عرفه من العربية تعطيش الجيم ، وكل ما عرفه من حب رسول الله ﷺ هو الصلاة والسلام عليه وعلى آله فهو طب القلوب ، وهو الحبيب المحبوب ، وهو الشفيع والدعاء أن

www.ibtesamh.com/vb

نشرب من يده الشريفة ونحن نرد على حوضه شربة لا نظمأ بعدها أبداً ، ولكن كيف كان ﷺ طب القلوب ودواءها ؟ لا يعرف الهواة من الدعاة معنى ذلك ولا تفصيله ، إنهم فقط يحفظون جملاً وعبارات معظمها في المقدمات ، يحفظون مقدمات محفوظة مسجوعة ، فإذا انتهت تلك المقدمات رأيت جهلاً واضحاً.

ومهم أن يشتمل الخطاب الديني على الرحمة ،حتى تتمكن من القلوب ، وهي ليست نافلة ، وإنما هي صفة دالة على الأمة ، بوجودها توجد الأمة ، وبضياعها تضيع ، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ.. (٢٩)﴾ [الفتح]

انظر كيف قال الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ.. (٢٩)﴾ [الفتح] هكذا ، هذه الأمة ، أي من الأزل ، وإلى نهاية الدنيا ، أمة متراحمة ، البينية بين أفرادها رحمة ، كالبينية التي بين الزوجين ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.. (٢٩)﴾ [الفتح] ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً.. (٢١)﴾ [الروم]

إن البينية التي بين أفراد الأمة ليست من هواء ، ولا حواجز خرسانية ولا حدود دولية وإنما هي رحمة ، لا تقوى السدود على إزالتها حتى الصلاة على النبي معناها الدعاء له بالرحمة ، فكلما صلى المسلم على رسول الله - ﷺ - تذكر الرحمة لأنه في سياقها

www.ibtesamh.com/vb

يصلى عليه ، ويسأل الله إياها من أجله ، بل إنه يسأل له - ﷺ - الوسيلة وهى درجة فى الجنة يرجوها ﷺ ، وقال: سلوا الله لى الوسيلة [1] ، وذلك مع كل أذان ، والله - عز وجل - يقول: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)﴾ [الأحزاب]

ومن أحب رسول الله - ﷺ - أو ادعى حبه كان عليه أن يعلم أن حبه ليس كأى حب ، كما أن الكذب عليه ليس كالكذب على أى أحد ، فحب رسول الله - ﷺ - مقتضاه اتباعه ، وهو على وجه الإجمال رحمة ، قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء] وعلى التفصيل أذكر هذه النماذج من سيرته العطرة :

١ - ومنها قبول اعتذار الذين اعتذروا إليه من المنافقين ولم يخرجوا معه ، وفى ذلك عاتبه ربه عز وجل فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)﴾ [التوبة]

٢ - ومنها أنه ﷺ رحم الأعرابى الجاهل الذى بال فى المسجد ، وحجز عنه أصحابه ، وقال: صبُّوا على بوله ذنوباً من ماء[2]. وعلّمه برفق ، فقال : إن هذه المساجد لا تصلح لهذا ، إنما هى لذكر الله والصلاة[3].

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧٥) والنسائى فى سننه (٦٧٨) وابن خزيمة فى صحيحه (٤١٨) وأبو عوانة فى مسنده (٩٨٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٠ ، ٦١٢٨) وأحمد فى مسنده (٧٧٨٦) وابن خزيمة فى صحيحه (٢٩٧) عن أبى هريرة ، وتمامه: « فإنما بُعثتم ميسّرين ولم تُبعثوا معسرين ».

(٣) هذا حديث آخر أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٨٧) وأحمد فى مسنده (١٣٠٠٧) والبزار فى مسنده (٦٤٢٦) والبيهقى فى سننه الكبرى (٤٣١١) من حديث أنس بن مالك.

www.ibtesamh.com/vb

٣ - ومنها أن رجلاً أتاه بعد سنة ، فلم يعرفه - ﷺ - فلما ذكَّره بنفسه قال له: وما الذى غيّرك؟ قال: ما ذقت لقمة منذ فارقتك إلاّ بليل، فقال له ﷺ : ولم عذبت نفسك ، صم شهر الصبر[1] أى رمضان.

٤ - وبمثل هذا أدرك - ﷺ - جماعة من أصحابه كان قد زين لهم أن يسيحوا فى الأرض ، ويعتزلوا النساء وألا يأكلوا اللحم ، وقال لهم : إنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام ، وأتزوج النساء ،وتلك سنتى، ومن رغب عن سنتى فليس مني[2].

٥ - وكان - ﷺ - يقيل عند أرحامه كأم سليم وقال: إنما أرحمها[3].

٦ - ومنها أنه - ﷺ - بكى فى مواضع كثيرة ، فلما سُئل قال: إنها رحمة ، وإنما يعذب الله بهذا أو يرحم وأشار إلى لسانه.

٧ - وأنه - ﷺ - كان يدعو بالرحمة لأصحابه ويذكر مسوغات هذا الدعاء ، جاء فى الصحيح « رحم الله أبا بكر حملنى إلى دار الهجرة ، وزوَّجنى ابنته[4] ، وما أكثر الأحاديث المشتملة على

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٤٣٠) وابن ماجه فى سننه (١٧٤١) وأحمد فى مسنده (٢٠٣٣٨) عن أبى مجيبة الباهلى عن أبيه أو عمه.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٦٣) وأحمد فى مسنده (١٣٥٥٨) من حديث أنس بن مالك.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٤٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٤٧٣) عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ لم يكن يدخل بيتاً بالمدينة غير بيت أم سليم إلا على أزواجه ، فقيل له فقال إنى أرحمها قتل أخوها معى.

(٤) أخرجه البزار فى مسنده (٨٠٦) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٥٥٠) ، وراوى الحديث هو الإمام على بن أبى طالب ، ولهذا دلالته.

www.ibtesamh.com/vb

الرحمة ، كقوله ﷺ : ارحموا ترحموا.

وقوله - عليه الصلاة والسلام : مَن لا يرحم لا يُرحم[1] وقد جاءت أحاديث فى مواضع معينة من الأعمال يجب أن يشتمل عليها الخطاب الدينى المعاصر فى ضوء الدعوة الصحيحة إلى الله - عز وجل - وفى محاولة هى إن شاء الله ناجحة فى استعادة ظرفية الرحمة التى افتقدناها فى هذا الزمان ، كما فى قوله - ﷺ -: « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع سَمْحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى سَمْحاً إذا اقتضى »[2] .

وما أشد حاجة الناس إلى إدراك معنى السماحة فى الدين لأن الصدور إذا استقر فيها معنى السماحة رحمت ، واتسعت رحمتها فصلُحت أن تكون ظرفاً يحتوى كل من هو فى حاجة إلى تلك الرحمة ، وليس هناك إنسان فى غنى عنها فمن كان غنى الجيب بالمال كان فى حاجة إلى رحمة المال ، يحتاج إلى مَنْ يُشعره بوجوده ، وينعطف عليه انعطاف الغصن على الغصن ، ويميل عليه بمودة ورحمة خالصين وبأن يُشعره بفضله ، وما قدَّمَتْ يداه ، كى يزداد عطاء.

وكذلك قوله - ﷺ - فى رجل سقى كلباً ، وجده على عطش ،

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٩٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٦١٧٠) من حديث أبى هريرة.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٧٦) من حديث جابر بن عبد الله ، وكذا أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٢٠٣) والبيهقى فى سننه الكبرى (١١٢٩٧).

www.ibtesamh.com/vb

فتذكر عطشه هو ، ونزل البئر ، فملأ له خُفَّه ، فسقاه ، فرحمه الله وأدخله الجنة[1].

وهذا المعنى مهم جداً فى استعادة ظرفية الرحمة ، وهو معنى من معانى القرآن الكريم ، والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)﴾ [النساء] دعانا ربنا - تعالى - أن نتبيَّن قبل أن نحكم على الناس بالكفر ، ونقول: إنما ألقوا السلام خوفاً من السيف، وقال: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا.. (٩٤)﴾ [النساء]

والمرء إذا تذكَّر أيام ضعفه عند رؤيته ضعيفاً دعاه هذا التذكر إلى رحمة هذا الضعيف ، والعطف عليه ، ومما دعانا إلى تمزيق ظرفية الرحمة أننا نسينا أيام كنا فقراء ، ضعفاء محتاجين كأنَّا وُلدنا هكذا، وتذكر معى دائماً حديث الثلاثة من بنى إسرائيل الأقرع والأبرص والأعمى ، حيث كانوا فقراء فأغناهم الله من فضله ، وعند الاختبار رسب الأوَّلان وفاز الأعمى ، رسب الأولان وقال لمن جاءهما على صورتهما القديمة: إن الحقوق كثيرة ، وهذا المال جاءنا كابراً عن كابر ، أما الأعمى الذى تذكر ، فقد قال للملك الذى جاءه بشراً: خذ ما شئت فإنه مال الله ، وقد كنت فقيراً لا شيء عندى ؛ فأعطانى الله ، فأخبره بحقيقة الأمر ، وأنه جاء من أجل الاختبار.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٧٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٩٩٦) من حديث أبى هريرة.

www.ibtesamh.com/vb

وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك:

والخطاب الدينى أرى أنه يجب أن يكون مرتكزاً على الرحمة لا ينشيء هذه الرحمة من عقل عبقرى ، ولا من تلقاء الذات لأن الخطاب الدينى كما أشرت هو خطاب رحمة بالفعل لا بالادعاء والله - عز وجل - يقول: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨)﴾ [الإسراء]

تتحدث الآية عن حال امرىء أتى أولى القربى واليتامى والمساكين حقوقهم ، ومرَّتْ به ظروف ، وجاءه هؤلاء وهو لا يجد ما يعطيهم، إن تلك الحال التى نطلق عليها كلمات صعبة بسبب ضعفنا وحبنا للخير . قال الله فيها ﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا .. (٢٨)﴾ [الإسراء]

يعنى أنك تُعرض عن المحتاجين لا تقبل عليهم لأنك فى حال ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، ما قال الله - عز وجل - وإما تعرضن عنهم عجزاً ولا إفلاساً ، ولا رغماً عنك ولا نحو ذلك مما يشهد به الواقع ، وإنما قال: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا.. (٢٨)﴾ [الإسراء] ، وأهل اللغة يعرفون أن الجُمل وشبه الجُمل بعد النكرات صفات ، وبعد المعارف أحوال ، وكلمة « رحمة » نكرة ، وهى موصوفة بصفتين: الأولى ﴿ مِنْ رَبِّكَ.. (٢٨)﴾ [الإسراء] والثانية: ترجوها فهى رحمة من ربنا ، ورحمة مرجوة منا ، وربنا رحيم ويحقق رجاء مَنْ رجاه ، يستحى أن يرد يديه صفراً إذا رفعهما إليه ، وقال: يارب.. يارب.. يارب .

www.ibtesamh.com/vb

وسوف يأتى الحديث عن ذلك مفصلاً فى فصل مستقل والشاهد هنا أن الله وعد الراجى بحق برحمة منه واسعة حال العسر ، إذ جاءه مَنْ له حق عليه وليس معه شيء يعطيه ، إن الدنيا كلها سوف تتغير لو وضعنا أسلوباً مكان أسلوب ، فهناك فرق بين قولك: فلان لم يعط قريبه المحتاج لأنه لا يجد ، وبين قولك: فلان لم يعط قريبه المحتاج لأنه منتظر رحمة الله وعطاءه.

وفى هذا المثال بيان للحال والفرق ، ولله المثل الأعلى ، لاشك أن المسكين إذا مرّ بمن يعطيه وهو جالس فوق صخرة على قارعة الطريق ، يضرب كفاً بكف ، وقد غاب عنه قاموس اللغة إلاّ كلمة « أف » يشعر بأنه لو اقترب منه لقام وأمسك بالصخرة التى يجلس عليها وضربه بها فوق رأسه ، وقال له: سوف أحطم رأسك وأقضى عليك ؛ فأنت سبب فقرى وشقائى وجلوسى ههنا .

لكن الحال يختلف لو أنه مرّ به وهو واقف أمام البنك ينتظر دوره كى يصرف الشيك الذى يمسكه فى يده ، معنى هذا أنه عما قليل سوف يصبح المال فى يده ، وسوف يعطيه ما اعتاد أن يعطيه هذا بالنسبة إلى المسكين ، ولا يمكن أن نتجاهل ما يتعلق بالكريم نفسه وإحساسه فى الحالين ، فالأول يائس من الرحمة ، والثانى على يقين من وصول تلك الرحمة إليه ، فالمعطِى بكسر الطاء ، والمعطى بفتحها على خير إذا تمكن الإحساس الثانى منهما ، ولاشك أن رحمة الله -عز وجل- أمكن مما فى البنك ، وقد يستغرق الوقوف

www.ibtesamh.com/vb

أمام البنك وقتاً ، ورحمة الله - عز وجل - تأتى حيث لا زمن ، وما فى البنك كله رصيد معلوم لصاحبنا الواقف ببابه جزء منه ، أما ما عند الله -عز وجل- فلا حصر له ولا إحصاء ، وما فى البنك يتوقف إذا عطلت آلة ، أو تغيَّر مزاج صراف ، وما هكذا الحال فى رحمة الله - عز وجل - وما فى البنك مرهون بزمن إذا جاء توقف الصرف إلى غد ، وما هكذا الحال فى رحمة الله - عز وجل ، إلى غير ذلك مما هو معروف من الفروق ، لكن النفس الضعيفة تثق بما فى البنك وبما عند الناس ، وبما فى الجيب ، هى تؤمن بأنَّ الله - عز وجل - بيده ملكوت كل شيء ، ولكن لا يسلم الإيمان عند كثير من الناس من جرح ، ومن هذا الجرح استبطاء ما عند الله - عز وجل - وقد نهى النبى - ﷺ - عن هذا الاستبطاء ، فقال : يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول: دعوتُ فلم يُستجب لي[1].

وكثير من الناس يقولون هذه العبارة ، ويسرع هواة الدعاة فى الرد عليهم قائلين لهم: نعم نعم ، صدقتم اسمعوا كلمات ابن أدهم ، وابن فلان وابن علان حيث قالوا : إنكم تأمرون بالمنكر ، وتنهون عن المعروف ، وتسيئون الجوار ، وتأكلون الحرام ، يعنى فى النهاية لن يستجيب الله لكم ، و الله - عز وجل - يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ.. (٦٠)﴾ [غافر] ، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ.. (١٨٦)﴾ [البقرة]

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (٤٩٧) وكذا البخارى فى صحيحه (٦٣٤٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٧١١٠) عن أبى هريرة.

www.ibtesamh.com/vb

والداعى لأنه على عجل، وصريع حاجته متعجل وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ.. (٣٧)﴾ [الأنبياء] والمؤمن فى الأصل إنسان، لكن إيمانه قد ارتقى به من حيوانية الإنسان إلى سمو الإيمان، ألا ترى إلى قول الله - عز وجل: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢)﴾ [المعارج] فالصلاة وهى عماد الدين قد أخرجت الإنسان عن بنى جنسه، فالمصلى لا يجزع عند شر؛ لأن الله منقذه ومنجيه من كل كرب، ولا يمنع عند خير لأنه يؤمن بأن الله - تعالى - يخلف عليه: ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾ [سبأ]

وكذلك الحال فى رجاء رحمة الله - عز وجل - انظر إلى موقفين من مواقف الكتاب العزيز، الأول قول الله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا.. (٤٠)﴾ [التوبة] والثانى قولِ الله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء] فالأول يحكى لنا موقف النبى - ﷺ - وصاحبه الصّديق - رضى الله عنه - فى الغار، حيث انتهى بهما المسار إليه، والكفار على بابه والطلب شديد، ولو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما، هكذا قال الصّديق - رضى الله عنه - فما كان من رسول الله ﷺ إلاّ أن قال له: ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟[1]. وقد أنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم يروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا و الله عزيز حكيم »

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٥٣، ٤٦٦٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٣١٩) من حديث أبى بكر الصّديق رضى الله عنه.

www.ibtesamh.com/vb

والثانى موقف موسى - عليه السلام - من قول قومه : إنَّا لمُدركون، حيث أدركهم فرعون وجنوده ، فالبحر أمامهم ، والعدو من ورائهم ، فقال أصحاب موسى: إنَّا لمدركون ، لكنه - عليه السلام - قال: كلا ؛ إن معى ربى سيهدين ، وهداه ربه رب العالمين، فأمره أن يضرب البحر بعصاه فانفلق ، ونجَّى الله موسى ومَنْ معه وأغرق فرعون وجنوده.

وأقول: وكذا فى رجاء رحمة الله ، حيث إن الذى ينفق وهو مؤمن بأن الله يخلف عليه لولا هذا الإيمان ما أنفق ، وكذلك الراجى رحمة ربه لولا هذا الرجاء لقتله اليأس خصوصاً إذا تعطلت الأسباب أو فُقدت ، وقد رأينا فى هذين المثالين كيف كان الخطر بالباب كما يقولون ، ولكن الله نجّى ، فلولا إدراك الرحمة الإلهية عند راجيها المطمئن إليها لما كانت نجاة ، وما كان فوز ، بل وما كانت على الأرض قلوب نابضة بالإيمان ، ساجدة للرحمن ، تتطلع إلى عظيم رحمته فى الوقت الذى تراها فيه العيون فى أزمة مادية أو مشكلة اجتماعية أو فى صورة من صور الابتلاء .

إن هذه العيون لا ترى ما وراء الأشياء الظاهرة ؛ لأنها مجرد عدسة لاقطة ما أمامها على علاته ، وخلف الصور التى تلتقطها العدسات معان يدركها أولو الألباب الذين يعرفون أن الراجى رحمة ربه لا ينظر إلى واقعه على أنه نهاية المطاف ، وإنما هو متطلع لما عند الله، وهو قريب: فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾ [الأعراف] فالمسيء يائس من رحمة الله ، لا يرجوها ؛ لأنه

www.ibtesamh.com/vb

مستبعدها ، ومستبعد الرحمة يائس منها ، والله لا يحب اليائسين من رحمته.

إنى أنا الغفور الرحيم. وعلاقته بظرفية الرحمة:

فى آية الحِجْر يقول الله عز وجل : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)﴾ [الحجر]

ولهذا التعبير صلة وثيقة بظرفية الرحمة ، حيث إنه لم يأت على نحو مما يقوله الناس بأن يقول: « نبئ عبادى أنى غفور رحيم. أو أنى الغفور الرحيم » والفرق قد يبدو سهلاً فى أعين الناظرين ، الذين يقولون هذا بـ « أنا » وذاك بدونها ،ويبقى السؤال : وما الفرق بين هذين التعبيرين « أنى أنا الغفور الرحيم » ، و« أنى الغفور الرحيم »؟

والجواب أن إبراز الضمير « أنا » يدل على أن مغفرة الله هى المغفرة ، وأن رحمته هى الرحمة ، فكم من رحيم بك من والد يموت فتموت معه الرحمة ، والله حى لا يموت.

وقد يكون من يرحمك ذات يوم عاجزاً عن رحمتك.

والله - عز وجل لا يُعجزه شيء.

وقد يكون من يرحمك يرحمك على وجه دون وجه بأن يعطيك مالاً إن كان يملك المال أو يسأله لك إن كان عاجزاً عنه ، وقد يرحمك بالعفو ولكن بعده يطردك من حياته كما يفعل كثير من الناس ، يكتفى رجل بالطلاق ولا يفضح مطلقته ويفتح لها الباب ويقول لها: انسى هذا العنوان لكن رحمة ربنا أوسع من خيالنا

www.ibtesamh.com/vb

يغفر الجم ، ويرحم من كل جانب ، يكشف الضر ، ويغفر الذنب ولا يبالى إنها ظرفية الرحمة ، إذا رحمك الله فقد رحمك عن يمينك وعن يسارك ، ومن أمامك ومن خلفك ، ومن فوقك ومن تحتك ، إنه يُدخلك فى رحمته كما قال عز وجل: ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا.. (٧٥)﴾ [الأنبياء]

أما غير الله فإنه يرحمك من جانب دون جانب وقد يُخيّرك ، فيقول لك: اختر كذا أو كذا ، أفعله من أجلك وقد يرحمك بأن يمهلك شهراً فلا تدفع فيه الإيجار ، لكن بعد هذا الشهر ، مع السلامة ، حيث لا سلامة تنتظرك . وقد يقول لك العبارة المأثورة: أنا لم أنجبك وأنسك أى لست من ذريتى ، مع أنك لو كنت من ذريته لما رحمك أيضاً من كل جانب ، فقد مات الناس الذين يُعاش فى أكنافهم كما قالت أم المؤمنين عائشة .

لذلك جاء النظم الجليل: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)﴾ [الحجر] أى: أنى أنا وحدى الذى مغفرتى هى المغفرة ، ورحمتى هى الرحمة، ومن معطيات هذا السياق والنظام فى بناء العبارة أن كل رحمة يراها الإنسان أو يسمع بها إنما هى من رحمة الله عز وجل.

وقد قال النبى - ﷺ - حين استشار أصحابه فى أسارى بدر ، وآثر رأى الصّديق - رضى الله عنه -: إن الله ليُلين قلوباً حتى تكون ألين من اللبن[1] ، وقد روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال:

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٦٣٢) والبيهقى فى السُّنن الكبرى (١٣٢٢٤) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

www.ibtesamh.com/vb

رُبَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » فى قصة معروفة ، حيث أبى أهل المرأة التى كسرت ثنيتها الربيع بنت النضر أن يقبلوا الأرش (الدية) أبوا إلاّ القصاص ، فقال أخوها أو قالت أمها: والله لا تقطع ثنية الربيع ، فإذا بهم فجأة يقبلون(1) ، فقال عليه الصلاة والسلام - هذا الحديث فمن الذى أنزل الرحمة فى قلوب هؤلاء ، وكانوا من قبل يصرون على القصاص ، وهو شرع الله وحكمه - كما قال النبى - ﷺ - لكنه شرع الله ، وقبول الأرش (الدية) شرع الله ، والعفو كذلك شرع الله عز وجل !

وانظر إلى تلك الآية من سورة الممتحنة ، والتى قال الله عز وجل فيها: ﴿ عَسَى الله أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً والله قَدِيرٌ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧)﴾ [الممتحنة] وتأمل ختم الآية الكريمة بقول عز من قائل : ﴿ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ.. (٧)﴾ [الممتحنة] أى من رحمته أن يجعل بيننا وبين أعدائنا مودة ، ومن ثم كان قوْل القائل: أبداً حتى يشيب الغراب ويبيض القار أحوج ما يكون إلي مراجعة وكذا كل أمر من الأمور فيه لله شأن على المرء خصوصاً الراجى رحمة الله - تعالى - أن يراجعه، ورحم الله ابن حجر الذى ذكر فى فتح البارى أن على المسلم إذا سمع بإسلام أحد من الأعداء أن يحبه لأنه صار بإسلامه أخاً له.

وأنا أومن بمقضى الحب ؛ تحقق الحب أو لم يتحقق لقول رسول

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٥٠٠) وأبو داود فى سننه (٤٥٩٧) وابن ماجه فى سننه (٢٦٤٩) من حديث أنس بن مالك .

www.ibtesamh.com/vb

الله - ﷺ - « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[(١)] وقوله - ﷺ - « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا»[(٢)] وصيغة « تفاعل » تدل على الاشتراك ، أى ليبذل كل منكم أسباب الحب لأخيه ، فإن تحقق الحب فبها ونعمت وإن لم يتحقق فلا بأس ؛ لأنه أى الحب من أعمال القلوب ، والقلوب بيد الله - عز وجل - يُقلِّبها كيف يشاء ، وقد روى قول النبى - ﷺ - « اللهم هذا قَسْمي فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك »[(٣)] وأشار إلى قلبه.

وروى أن عمر - رضى الله عنه - قال لأبى مريم السلولى: أنا لا أحبك ، فأنت قاتل أخى أى زيد بن الخطاب ، فقال: يا أمير المؤمنين ، أكُرهك لى يجعلك تظلمنى؟ قال: لا ، قال السلولى: إنما يبكى على الحب النساء.

والله عز وجل لم ينف البغض من صدور عباده المؤمنين وإنما نهاهم مع البغض عن الظلم ، فقال عز وجل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا.. (٨)﴾ [المائدة] أى : لا يحملنكم منتهى البغض وهو الشنآن على الظلم ، لأن البغض يعين على الظلم فبوسع الإنسان المكلف أن يعدل مع الذين يبغضهم ، والعدل من مقتضى الحب ، فقد يتحقق المقتضى مع المحبوب ، ومع غير المحبوب.

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩) من حديث أنس بن مالك.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٣) وكذا أبوداود فى سننه (٥١٩٥) وفيه زيادة « أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم »عن أبى هريرة.

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٣٦) والبيهقى فى السنن الكبرى (١٥١٤١) والحاكم فى مستدركه (٢٧٦١) عن عائشة رضى الله عنها.

www.ibtesamh.com/vb

والله عز وجل يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ.. (٢٢٠)﴾ [البقرة] أي أنه - عز وجل - قادر على أن يكتب العنت والمشقة بعزته وجلاله وعظمته ، لكنه كتب على نفسه الرحمة ، وأرسل رسوله - ﷺ - عزيزاً عليه عنتُنا حريصاً علينا بالمؤمنين رءوفاً رحيماً ، وما جعل سبحانه وتعالى علينا في الدين من حرج ؛ وقد قال وقوله الحق : ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ.. (١٨٥)﴾ [البقرة] ، ورحم من عباده الرحماء ودعاهم إلى رحمته ، التي وسعت كل شيء ، وأنه عز وجل يكتبها للذين يتقون ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهو الغفور الرحيم ، ما من مغفرة بين الناس إلاّ من مدد مغفرته وما رحمة بين الناس إلاّ هي من واسع رحمته ، ومن رحمته أن تدفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.

www.ibtesamh.com/vb

الفصل الرابع

السبيل إلى رحمة الله
(شروط الراجى رحمة ربه)

www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb

شروط راجى رحمة ربه

قال الله - عز وجل: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨)﴾ [الإسراء] وُصِفت الرحمة فى هذه الآية الكريمة بوصفين

الأول: ﴿ مِنْ رَبِّكَ.. (٢٨)﴾ [الإسراء] لا من غيره ، فما من رحمة إلا وهى من عند الله .

والثانى: ﴿ تَرْجُوهَا.. (٢٨)﴾ [الإسراء]: فهى رحمة لابد أن تُرْجَى ، فقل اللهم إنى أرجو رحمتك ، قال تعالى: ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ.. (٩)﴾ [الزمر]

ولراجى رحمة الله - عز وجل - شروط ، أهمها .

١- التوحيد

فالكافر يائس من رحمة ربه ، لو كان راجياً إياها لاتبع المرسلين: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١)

www.ibtesamh.com/vb

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)﴾ [نوح]

فالله يدعو إلى الرحمة والمغفرة ، وقد جاء رجل إلى النبى - ﷺ - وقال له: إننى أعبد عشرة آلهة ، واحداً فى السماء ، وتسعة فى الأرض ، فسأله النبى ﷺ :

مَنْ يُجيبك إذا دعوته؟

قال: الذى فى السماء

قال: من يغنيك إذا أجدبت ؟

قال: الذى فى السماء

قال: إذاً لا داعى إلى العشرة

فقال: صدقت ، وأسلم

٢ - اليقين أنّ الرحمة بيد الله وحده:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨)﴾ [الملك] إن ابن نوح - عليه السلام - قال: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ.. (٤٣)﴾ [هود] فماذا قال نوح - عليه السلام؟

قال: ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ.. (٤٣)﴾ [هود] وفى حديث مسلم « إن الله جعل الرحمة مائة جزء ، ادخر عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل منها جزءاً واحداً أن ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية

www.ibtesamh.com/vb

أن تصيبه »[1].

والله - عز وجل - يقول: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾ [فاطر] وكان رسول الله - ﷺ - يقول عقب كل صلاة مكتوبة ثلاث مرات:

لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لمَا منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[2].

وفى آية الملك يقول الله - عز وجل: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١)﴾ [الملك]

تستطيع أن تقول: إنَّ من وقر اليقين فى قلبه بأن الرحمة من عند الله سأله إياها وهو يعلم مؤمناً بأن الله إذا رحم رحم جميع خلقه ، وإذا لم يرحم فلن تجد للرحمة مِنْ وجود.

٣ - أنْ يكون راجياً إياها :

وذلك لقول الله -عز وجل- :﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا.. (٢٨)﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٧١٤٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٨٤٤ ، ٦٣٣٠) وكذا مسلم فى صحيحه (١٣٦٦) عن المغيرة ابن شعبة.

www.ibtesamh.com/vb

والرجاء إنما يكون فى الممكن ، والتمنى إنما يكون فى المستحيل، وقد جاء الرجاء مع الرحمة فى جميع المواضع فى الكتاب الكريم مع أهل تلك الرحمة.

﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ.. (٩)﴾ [الزمر] ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ .. (٨)﴾ [الإسراء] ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ.. (١١٨)﴾ [المؤمنون] ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ [يوسف] فلا تكن كالذين إذا أصيبوا قالوا: يفعل الله بنا ما يشاء ، نحن راضون بما يأتى به الله ، ونحو هذه العبارات التى تدل على أنّ قائلها فى الظاهر عبد من عباد الله الذين أسلموا وجوههم لله ، والله - عز وجل - يقول: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ.. (١١٢)﴾ [البقرة] ويقول: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ.. (٢٢)﴾ [لقمان]

وليس من الإحسان أن يصد المرء نفسه عن رحمة ربه ، ولا يبتغيها ، عليه أن يرجوها وأن يسأل الله إياها الذى نستغيث جميعاً برحمته ، وأن يلهج فى طلبها ليل نهار.

٤ - أن يدعو بالرحمة ويترقبها:

والفرق بين الرجاء والدعاء أن الرجاء حالة نفسية ، والدعاء سؤال وقول ، فمَنْ رجا رحمة ربه ترقبها وانتظرها وهو على يقين أنها آتية ، كالمنتظر غائباً يرجى عودته بخلاف من يرتجى غائباً غاب مدة حياة مثله ، فلو أن رجلاً غاب عنك لكى يحضر لك شيئاً من السوق وهى قريبة - لاشك أنك ترجو عودته والمريض الذى به شيء من الصداع

www.ibtesamh.com/vb

الخفيف ونزلة البرد الخفيفة ، ونحو ذلك مما قال فيه الفقهاء: يُرْجَى بَرْأه ، بفتح الباء ، أى يُرجى شفاؤه ، ومثله إذا أفطر فى نهار رمضان: ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.. (١٨٤)﴾ [البقرة] لأنه إن شاء الله يقدر على الصوم بعد رمضان ، أما الذى لا يُرْجى شفاؤه فمعروف ، كالطاعن فى السن إذا أصيب بشيء فى فمه ، ونحو ذلك كمن أصيب بالأمراض الفتاكة فمثله إذا أفطر فى رمضان وهو لابد مفطر: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ.. (١٨٤)﴾ [البقرة]

أما الذى غاب ، وانقطع خبره ، وطال غيابه فإن الفقهاء يحكمون بموته وتوزيع ميراثه إن غاب مدة حياة مثله ، أى مضى عليه زمن نحو الثمانين عاماً ، فمات نظراؤه ، إنما حكم الفقهاء بذلك لأنه ميئوس من حياته.

ورحمة الله أقرب مِنْ عودة الذى قصد السوق من أجل شراء شيء ، لأن الذى قصد السوق قد يأتيه أجله فيها ، أو قريباً منها ذهاباً أو إياباً.

أما رحمة الله - عز وجل - فكما قال الله تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا.. (٢)﴾ [فاطر] يحول بين قاصد السوق وبين عودته أمور ، منها الأجل ، ومنها أن يصحب مسافراً ، بدا لك بداء أن يذهب معه ، فيصح فيه قول القائل: « خرج ولم يعد » وكم من غلام خرج لشراء شيء ، فدهمته سيارة ، وكم من غلام خرج لشراء شيء ولم يعد ، ونحو ذلك كثير ، حدَّثنى بعض الشباب أن

www.ibtesamh.com/vb

زوجته خرجت لزيارة أمها فى إحدى المحافظات ، ووعدته متفقين متصافيين أن تعود بعد أسبوع ، ومضى على ذلك عشرة أعوام. ما ذهبت إلى أمها والله أعلم وحده أين ذهبت ، ربى طفلته التى تركتها فى العاشرة، وزوجها ، ومازال ينتظر ، بحث عنها فى كل مكان ، وأبلغ أقسام الشرطة ، ونشر صورتها فى الصحف ولا يدرى أين ذهبت.

وما هكذا الحال مع رحمة الله -عز وجل- إنما هذا تمثيل لما يُرْجَى ، وما اليأس أقرب إليه من الرجاء مما جرت به العادة ، كل مرجو فى الحياة يحتمل اليأس ، وليس من رحمة الله - عز وجل - يأس.

ما كان فى السماء من غمام يوم سأل الناس رسول الله - ﷺ - أن يدعو لهم بالسقيا فقد هلكوا. فدعا ؛ فأمطرت ، روى البخارى «مُطرنا من الجمعة إلى الجمعة » حتى جاء الرجل أو جاء غيره ، وكان السؤال منه أن يكف المطر، فقال عليه الصلاة والسلام أدباً مع الله (اللهم حوالينا ولا علينا)[1].

فاتجه المطر إلى الوديان ، ومنابت الشجر برحمة الرحمن الرحيم.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٣٣ ، ١٠١٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢١١٦) من حديث أنس بن مالك.

www.ibtesamh.com/vb

وما كان فى السماء من غمام حين سألوه فى تبوك ، وهى غزوة العُسْرة حيث شدة الحر، وقلة الزاد ، فدعا - ﷺ - فأمطرت.

سُر بذلك المسلمون ، وقال زيد بن اللصيت من المنافقين: سحابة مرت ، أى من قبيل المصادفة ، إن المنافقين لا يفقهون وما كان أحد يطمع فى إسلام عمر بن الخطاب ، قال أحدهم : والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ، أى إن أسلم حمارُ أبيه وقال: أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله أسلم ، يأساً من إسلامه وقد أسلم عمر ، وإنما كان اليأس من إسلامه لما رآه الناس من غلظته على المسلمين ، فانظر إلى آثار رحمة الله فى إسلام الفاروق الذى نصر الله به الدين ، وأعزّ به المسلمين ، وأذل به الشرك والمشركين ، هاجر جهاراً نهاراً ، ولزم رسول الله - ﷺ - وزوَّجه ابنته وقال عليه الصلاة والسلام: آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر ، وكان وزير رسول الله - ﷺ - وموضع مشورته ، وكان وزير خليفته من بعده ، ثم كان أمير المؤمنين الذى دوَّن الدواوين ، وفتح الله به البلاد وأسعد به العباد.

واستحال قلب عمر القاسى قلباً رحيماً يرقّ لطفل ، وامرأة ، ويحمل عن الناس همومهم ، ويعالج قضاياهم:

جوع الخليقة والدنيا بقبضته فى الزهد منزلة سبحان موليها

والله - عز وجل - أمرنا بدعائه بها ، قال الله - عز وجل - فى خاتمة البقرة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا

www.ibtesamh.com/vb

وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾ [البقرة]

وفى آية الكهف: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)﴾

[الكهف]

٥ - أن يعرف مستند الدعاء بالرحمة :

إن لكل دعاء مستنداً، يستند عليه ، ومستند الدعاء بالرحمة بالذات دون غيره أن يرحم راجى رحمة ربه غيره » وذلك لما رواه البخارى فى صحيحه من قول رسول الله - ﷺ -: « ارحموا تُرحموا» وقوله - ﷺ - : « مَنْ لا يَرْحم لا يُرْحم »[1]. وقوله - ﷺ - : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »[2].

وقوله - عليه الصلاة والسلام: « الراحمون يرحمهم الرحمان» [3].

فالجزاء - كما هو معروف - من جنس العمل ، رحم رجل كلباً فسقاه ، فأدخله الله الجنة كما روى البخارى ، وعذبت امرأة هرة فدخلت بسببها النار ، كما روى البخارى كذلك [3].

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦٥٤١ ، ٧٠٤١) والبخارى فى كتابه (الأدب المفرد) (٣٨٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى.

(٢) ، (٣) أخرجه حديثاً واحداً الترمذى فى سننه (١٩٢٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص وصححه وكذا البيهقى فى سننه الكبرى (١٨٣٦٢).

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٦٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٩٨٩) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

www.ibtesamh.com/vb

وفى الحديث: « ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا »[1] غير مُتصوّر أن يرجو قاسى القلب رحمة الله - عز وجل - وقد روى مسلم فى صحيحه عن النبى - ﷺ - قوله: « إن الله يعذب مَنْ يعذب الناس»[2].

٦ - أن يكون مهاجراً مجاهداً فى سبيل الله :

وفى سورة البقرة الآية (٢١٨): يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)﴾ [البقرة]

فإن كانت الهجرة قد انقطعت بفتح مكة ؛ فإن المعنى لم يزل موجوداً وسيظل إلى يوم القيامة ، فالمهاجر من هجر ما نهى الله عنه كما فى الحديث ، وفى الحديث: ولكن جهاد ونية.

يرجو رحمة الله عز وجل من يجتهد فى هجرة ما نهى الله عنه من الفواحش ظاهرها وباطنها ، ومن جاهد فى سبيل الله جندياً يحمى ثَغْراً للمسلمين ، وطالب علم ، وساع على رزقه إما على والدين كبيرين ، أو على أرملة مسكينة ، أو على يتيم لا عائل له ، أو على نفسه يعفها عن السؤال ، كل هؤلاء فى سبيل الله ، فالذى يرجو رحمة ربه وهو غير مجاهد ، وفى الوقت نفسه تراه قادراً على الجهاد، إنما هو واهم ، ساع إلى العذاب ، لا إلى الرحمة تأمل

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (١٩١٩) عن أنس بن مالك وصححه ، وكذا أحمد فى مسنده (٦٧٣٣) عن عبد الله بن عمرو.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٨٢٤) من حديث هشام بن حكيم. وكان فى شأن أناس من الأنباط أقيموا فى الشمس حُبسوا فى الجزية ، فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله يقول: « إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا ».

www.ibtesamh.com/vb

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله.. (٢١٨)﴾ [البقرة] فقد بيَّن ربنا - عز وجل- فى هذا النظم الجليل مَنْ يرجو رحمة ربه على وجهها ، أن يكون مؤمناً مهاجراً مجاهداً فى سبيل الله - عز وجل - وباستطاعة كل إنسان أن يفعل المعروف الذى هو جهاد فى سبيل الله ، ولو أدلى من دلوه فى دلو أخيه شيئاً ، ولو قال كلمة طيبة ، ولو أمسك عن الشر.

٧ - أن يرجع إلى الصلاح:

ولعلنا نلحظ سبيلاً من سُبل الرحمة ، ومُعْلَماً من معالمها على طريق الرجاء الصحيح لتلك الرحمة ، وهو العودة إلى الصلاح وعدم التمادى فى الأذى والضرر ، وذلك من خلال هذه الآية الكريمة من سورة البقرة (٢٢٦): ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦)﴾ [البقرة]

أى فإن رجعوا غفر الله ورحم ، ومعنى الإيلاء : القَسَم : يقسمه الرجل ألاَّ يضرب امرأته ، فله فسحة من الوقت حددتها الآية الكريمة، وهى أربعة أشهر ، فإن رجع إليها ، وباشرها ، فقد تعرض لرحمة الله - عز وجل - وإن أَبى طلقها ، وذلك حتى لا تكون معلقة ، ولذا جاء بعد هذه الآية قول الله تعالى - (٢٢٧): ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾ [البقرة] فهو إما أن يعود إلى حياة طبيعية طيبة ملؤها السكن والمودة والرحمة. وإما أن يطلق ، قال تعالى - : ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ الله كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ.. (١٣٠)﴾ [النساء]

www.ibtesamh.com/vb

فقُلْ للذين يهجرون نساءهم بالسنين ما أبعدكم عن رحمة الله ، ورحمة الله قريب من المحسنين وما تفعلونه ليس إحساناً ، وإنما هو من الإساءة بمكان ، قل لهم إما أن يعودوا إلى حياة ، وإما أن يسرحوا بإحسان.

٨ - أن يكون تواباً :

قال الله - عز وجل - فى آية البقرة (١٦٠): ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)﴾ [البقرة] ، وقال سبحانه فى آية البقرة (٣٧): ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة] وما أكثر الآيات الداعية إلى التوبة والتى اقترنت فيها الدعوة بالرحمة.

وفى آية الزمر يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر]

والله - عز وجل - أشد فرحة بتوبة عبده المسلم من رجل فقد دابته فى الصحراء ، وعليها رحله وزاده ، فلاذ إلى شجرة نام تحتها يائساً ، ثم صحا فجأة ودابته أمامه ، رجعت إليه بما عليها ، فتصور كيف يكون حاله ، وكيف يكون إحساسه ، وما مدى فرحته بتلك النعمة التى لولاها هلك. إن هذا تمثيل وتصوير يبين لنا كيف أن باب التوبة مفتوح ، وكيف يكون رضا الله عن عبده التواب ، الذى إن فعل الذنب وتاب وقال يارب اغفر لى قال الله لملائكته : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ، إنى قد غفرت له.

www.ibtesamh.com/vb

٩ - أنْ تكون توبته قريبة:

من تلك الشروط المهمة فى سياق التوبة أن تكون من قريب ، قال تعالى فى آية النساء (١٧): ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ.. (١٧)﴾ [النساء]

وفى سورة الأنعام الآية (٥٤) يقول ربنا سبحانه: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.. (٥٤)﴾ [الأنعام]

والتعبير بـ ﴿ مِنْ بَعْدِهِ.. (٥٤)﴾ [الأنعام] يدل على قرب التوبة كذلك والتعبير بـ « ثم » ليس للتراخى الزمنى ، ولكن لبُعد ما بين حال المطيع وحال المذنب ، وكأنه إذا تاب ورجع كان كمن تجاوز مكاناً إلى مكان بعيد جداً والتعجيل بالتوبة من الضرورة بمكان ، لأن الموت يأتى بغتة والتسويف من الشيطان الغرور ، الذى دائماً يقول للإنسان : أمامك عمر طويل ، وسوف تتوب ويقبل الله توبتك وقد يدركه الأجل ، فيموت على ضلال ومعصية وذنب ، بالله لو أن عاقلاً كان راجياً خيراً من أحد من الناس أتراه يتأنى ويتريث ، ويهدأ ويصبر أم أنه يبادر إليه من قريب ، ولو كان الوقت غير مناسب ، فما بالك براجى رحمة ربه ، التى هى مصدر كل رحمة ، كيف يتأنَّى فى التوبة ويتريث ويضيع على نفسه فرصة التوبة من قريب !

١٠ - أن يكون من المستغفرين:

قال الله - عز وجل - فى آية البقرة (١٩٩): ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ

www.ibtesamh.com/vb

النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩)﴾ [البقرة]

وقال تبارك اسمه: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

والعذاب ضد الرحمة ، وهذا وعد الله - عز وجل - لا يُعذِّب من يستغفره ، لكن قضية الاستغفار قضية مهمة حيث ظنه كثير من الناس قول « أستغفر الله » باللسان ألف مرة ، أو مليون مرة يتوقعون أن السماء سوف تمطر بعده وسوف تخضر الجنات ، وتورق الأشجار، ويأتى المدد من الله - عزوجل - بالأموال والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، هذا لا أساس له ، فالاستغفار إنما يكون بالسعى فى طلب المغفرة ، والمضى على طريقها فمن بر والديه كان مستغفراً ، ومن وصل أرحامه كان مستغفراً ، ومَنْ أحسن إلى جاره كان مستغفراً ، ومازالت الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم ، رضاً بما يصنع وفى الحديث : من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وهل يدخل أحد الجنة إلاّ برحمة الله !

ثم يكون الاستغفار باللسان بعد ذلك ترطيباً للسان ، فإنْ ظن أنَّ الاستغفار إنما هو باللسان وحده كان ذلك من العمى بمكان.

١١ - أن يكون من الصابرين:

والراجى رحمة ربه إنما يكون على سبيل الراجين الصادقين إن كان من الصابرين ، قال تعالى فى آية النساء (٢٥): ﴿ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ

www.ibtesamh.com/vb

لَكُمْ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)﴾ [النساء] ما ذكر فيه ﴿والله غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)﴾ [النساء] يجب التنبه إليه ؛ لأن ما ذكر فى سياق الرحمة يُعد من ملابستها ، ومن شروطها ، والعجلة لا تأتى بخير ، والضجر نقيض الصبر ، والصبر خلق الأنبياء والمرسلين ، والصالحين من عباد الله - عز وجل -.

وقد ذُكرت الرحمة هنا مع الصبر فى سياق الحديث عن الذى لم يستطع طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات ، يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ والله أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)﴾ [النساء]

قال الرازى فى قوله سبحانه: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)﴾ [النساء] وهذا كالمؤكد لما ذكروه من أن الأَوْلَى تَرْك النكاح وإن حصل ما يقتضى المنع من هذا الكلام إلاّ أنه تعالى أباحه لكم لاحتياجكم إليه فكان ذلك من باب المغفرة والرحمة » (التفسير الكبير ٥/١٦٨) وأرى أن الصبر على عدمه أو على طلبه على وجهه هو المراد والله أعلم.

١٢ - أن يكون من المصلحين المتقين:

ومن شروط راجى رحمة ربه - عز وجل - أن يكون من المصلحين

www.ibtesamh.com/vb

المتقين ، قال تعالى فى سورة النساء الآية (١٢٩): ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩)﴾ [النساء]

وفى سياق العدل بين الزوجات - كما ترى - يأتى الحديث عن مغفرة الله - تعالى - ورحمته ، ومن رحمة الله - عز وجل - أنه قال: فلا تميلوا كل الميل ؛ لأن الله يعلم حال عباده ، وأنهم من غير الممكن أن يعدلوا كل العدل ولو حرصوا بين الزوجات لاختلاف الشخصيات ، وللميل القلبى الذى يكون فى صدر الرجل نحو واحدة من زوجاته دون الأخرى، وهناك من تجذبه إليها وهناك من لا تملك أدوات هذا الجذب ، وغير ذلك ، لكن أن يميل بالكلية مهملاً الأخرى فذلك هو المنهى عنه ، لكن العدل فى القسمة المادية لابد أن يكون ، وهو قادر على ذلك ، وهو غير قادر على الجانب المعنوى والشعورى ، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩)﴾ [النساء]

وفى سبيل رحمة الله يستطيع مَنْ لا يطيق شيئاً أن يطيق ، ومن يصرخ قائلاً: لا أحبها أن يميل إليها ابتغاء وجه الله عز وجل.

١٣ - ألا يُفرّق بين أحد من رسل الله :

.. مهم جداً هذا الشرط الذى قد يغيب عن كثير من الراجين لرحمة الله ، حيث قال تعالى فى سورة النساء الآية (١٥٢) :

www.ibtesamh.com/vb

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)﴾ [النساء] قال الزمخشرى فى الكشاف (١/٥٧٦): « المعنى : ولم يفرقوا بين اثنين منهم ، أو بين جماعة ، روى أنّ كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء وغيرهما قالوا لرسول الله - ﷺ - إن كنت نبياً صادقاً فائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى ؛ فنزلت »

ونحن فى مواسم متعددة أهمها مناسبة مولده - ﷺ - نرى تجاوزاً فى هذا ، إلى درجة أن العوام يتصورون أن محمداً - ﷺ - هو الرسول الكامل ، وغيره فيه نقص فليعلم الناس أن الله - عز وجل- فضل بعض الرسل على بعض ، وبعض الناس على بعض، وبعض الأماكن على بعض ، وبعض الزمن على بعض ، لكنَّا كما قال تعالى: ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾ [البقرة] والدليل على ذلك أن الله تعالى أقسم بالفجر وبالليل وبالضحى ولكنا لا نقسم إلاّ بالله عز وجل.

١٤ - ألا ينحرف إلى الإثم:

ومن صفات راجى رحمة ربه ألا ينحرف إلى إثم ، قال تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)﴾ [المائدة]

قال الزمخشرى فى الكشاف (١/٥٩٤): « فمن اضطر إلى الميتة أو إلى غيرها فى جماعة ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ.. (٣)﴾ [المائدة] : غير منحرف إليه كقوله: ﴿ غير باغ ولا عاد.. (٣)﴾ [المائدة] فإن الله غفور: لا يُؤاخذه

www.ibtesamh.com/vb

بذلك وقد ذكر العلماء أن المضطر يأخذ من الضرورة بقدرها ، لا يجاوز هذا القدر ، ومنهم من ذكر أن ذلك لمن كان فى سفر حلال وطاعة ، يأكل من هذه المحرمات عند الضرورة ويقصر من الصلاة ويفطر فى رمضان ، ومنهم من أخذ بمطلق السفر الذى هو مشقة كأبى حنيفة ومَنْ وافقه .

والبعد الذى يستفاد من ذلك أن راجى رحمة الله - عند الضرورة - يأخذ بقدرها ، لا يتجاوز هذا القدر إلى الاتساع فيه ، ومن ذلك مَنْ كان فى حاجة إلى قرض ونحوه ، من الناس مَنْ إذا اضطر إلى ألف اقترض ألوفاً ، ومن إذا اضطر إلى ألوف اقترض المليون وهكذا.

ومنهم من يرى سبيل الرشد فلا يسلكه ومن يرى سبيل الغى فيُؤثره ويسلكه ، وهو بهذا يعرّض نفسه لعذاب الله ، لا إلى رحمة الله عز وجل.

١٥ - أن ينجح فى الابتلاء:

والنجاح في الابتلاء من دلائل الصدق فى الرجاء ، فمن أخفق فيه عذب ، ومن نجح فيه فاز برحمة الله عز وجل.

والدليل على ذلك قول الله - سبحانه - فى خاتمة الأنعام (١٦٥): ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾ [الأنعام] سريع العقاب لمن ابتلى فأخفق ، وغفور رحيم لمن ابتلى فنجح ، ومعنى الآية

www.ibtesamh.com/vb

أن الله عز وجل جعلنا خلائف فى الأرض يخلف بعضنا بعضاً فيها ورفع بعضنا فوق بعض درجات ، فالرئيس الناجح مَنْ أدّى حقّ الله فى رعاياه ، فلم يظلم أحداً منهم ، ولم يستجب لبطانة السوء ، وأول السبعة الذين يُظلهم الله بظله يوم لا ظل إلاّ ظله « إمام عادل ».

والمرءوس الناجح هو الذى يؤدى حق الله وحق رئيسه وكذلك الغنى المرفوع بماله ، إن نجح لم يزده ماله إلاّ تقوى لله - عز وجل- وصلة لأرحامه ، وجهاداً وشكراً فى سبيله ، والفقير المرفوع عليه غيره صبر وعمل دون حقد على الأغنياء ، وسواد يعكر عليه صفوه.

وقد قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا.. (١٧)﴾ [الفجر] أى أن الإكرام والتنعيم من الله فتنة واختبار ، وكذلك من قدر عليه رزقه ، فمن علم ذلك وأدى مقتضاه كان صادقاً فى رجائه رحمة الله فيزيده الله من فضله.

١٦ - أن يستمع إلى القرآن الكريم وينصت:

والراجى رحمة الله - عز وجل - يستمع للقرآن الكريم وينصت له قال تعالى فى سورة الأعراف الآية (٢٠٤): ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾ [الأعراف]

انظر كيف عبر بالرجاء مع الرحمة ؛ لأنها قريب من المحسنين: ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾ [الأعراف] ومن الإحسان أن إذا قرئ

www.ibtesamh.com/vb

القرآن الكريم استمع له المسلم وأنصت.

ومعنى « أنصت » استدعاه من بعيد ، ومعنى ذلك أنه قد يكون بين الناس ، ويسمع القرآن من بعيد ، وفى هذه الحالة يتابعه رغم بُعْد الصوت ؛ لأنه يرجو رحمة ربه . وبهذه المناسبة أقول: إن الناس قد أحدثوا أمراً عظيماً حين كبَّروا الأصوات ، حتى فى بيوتهم ، فسمع صوت القرآن من خلال الراديو أو الكاسيت أو التلفاز ، أو غير ذلك وأنت مطالب بأن تنصت له ، فكيف تعمل؟ وكيف تباشر عملك ، ولو أن المستمع لإذاعة القرآنية الكريم أحسن إلى نفسه وإلى جيرانه لاكتفى بالقدر الذى يسمعه هو دون أن يُوقع غيره فى حرج ، ناهيك بمن يضع إذاعة القرآن على فم الميكروفون فى الزوايا والمساجد قبل الأذان بمدة طويلة. قل له : إنك بذلك توقع الناس فى حرج و الله تعالى يقول: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ.. (٧٨)﴾ [الحج] ومن الناس من يشغل إذاعة فى مكتبه ومتجره ولا يسمع من القرآن شيئاً يظن أن إذاعته بركة ، وهذا وهم فضلاً عن السماع دون اعتبار وتدبر »

١٧ - أن يكون فى قلبه خير:

والدليل على أن الخير الذى فى القلب من شروط صحة الرجاء لرحمة الله رب الأرض والسماء قول الله - تعالى - فى سورة الأنفال الآية (٧٠): ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠)﴾ [الأنفال]

www.ibtesamh.com/vb

والشاهد فى هذه الجملة الشرطية: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠)﴾ [الأنفال]

وما أكثر الذين تنطوى قلوبهم على شر ، وألسنتهم لاهجة بذكر الله ، والاستغفار بالقول والتسبيح وغير ذلك والعبرة بعموم اللفظ ، لابخصوص السبب ، فلا يزعم أحد أن هذه الآية فى الأسرى دون سواهم ، وإنما هى عامة وشرط لكل من يدَّعى أنه يرجو رحمة الله - عز وجل . أن يشتمل قلبه على خير ، إن كان معسراً واشتمل قلبه على خير آتاه الله ، وقد يؤتيه وهو مملوء قلبه بسواد كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ [التوبة] فقد كانوا يكذبون حين قالوا: ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾ [التوبة] ومع ذلك أعطاهم ولكنهم لم يحصلوا على خير وراء هذا العطاء ، حيث أعقبهم الله نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، وكم من عازم على أمر ومنه الزواج يتظاهر بالخير وهو ينوى الشر ، فكيف يكون راجياً رحمة الله تعالى !

١٨ - أن يتقرب إلى الله - عز وجل - بصدقة:

ومن شروط راجى رحمة ربه - عز وجل - أن يتقرب إلى الله بصدقة ، والدليل على ذلك قول الله - تعالى - فى سورة التوبة الآية (٩٩): ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ

www.ibtesamh.com/vb

عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)﴾ [التوبة]

إن من يتخذ ما ينفق قُرْبة لا غرامة ، وهو إنما يتخذ ذلك قُرْبة بالإخلاص ، لا رياء وسمعة.

وقد تجد مثلى أنه لا شيء يعلو على الصدقة فى دين الله ، قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)﴾ [الليل]

وروى مسلم فى صحيحه أن رسول الله - ﷺ - سُئل عن خير ما فى الإسلام ، فقال : إطعام الطعام[1] وفى البخارى « داووا مرضاكم بالصدقة »[2] وفيه: « اتقوا النار ولو بشق تمرة »[3].

والحديث عن الصدقة حديث مستفيض ، فمَنْ أخرج لله - عز وجل - شيئاً أكرمه الله ورحمه ؛ لأنه سينمى له ذلك الشيء حتى يأتى يوم القيامة مثل جبل أُحُد.

١٩ - النصح لله ورسوله:

ومن أهم شروط راجى رحمة الله - تعالى - أن يكون ناصحاً لله

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢) عن عبد الله بن عمرو ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٩).

(٢) أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى (٦٨٣٢) عن عبد الله بن مسعود.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٩٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٩٦) عن عدى بن حاتم.

www.ibtesamh.com/vb

عاملاً بكتابه ، ولرسوله عاملاً بسنته حريصاً على اتباعه وأن ينصح للمسلمين ، قال - عز وجل - فى آية التوبة (٩١): ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١)﴾ [التوبة]

والدين كما قال النبى - ﷺ - النصيحة[1].

وانظر إلى ما رواه ابن عبد البر - رحمه الله - عن جرير بن عبد الله يوسف هذه الأمة كما قال فيه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه ، قال جرير:

بايعتُ رسول الله - ﷺ - على الإسلام ، وعلى النصح لكل مسلم[2].

فانظر إليه كيف فسر فهمه للنصح لكل مسلم حيث إنه - رضى الله عنه - ما اشترى من أحد شيئاً إلاّ قال له: اعلم أن الذى أخذناه منك أفضل من المال الذى أعطيناك ،ولك الخيار ، وإذا باع شيئاً قال للمشترى: اعلم أن المال الذى أخذناه منك أفضل من الشيء الذى أعطيناك ولك الخيار ، فمن فى الناس اليوم يفعل ذلك؟ وأنت ترى الأمر واقعاً بين الناس على أساس ذم المأخوذ ومدح

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٥) وكذا أبو داود فى سننه (٤٩٤٦) والنسائى فى سننه (٤١٩٧) عن تميم الدارى.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٩) وكذا النسائى فى سننه (٤١٥٦) وأحمد فى مسنده (١٩١٧٥) من حديث جرير بن عبد الله .

www.ibtesamh.com/vb

المعطى ، فمن اشترى شيئاً ذمه ومدح ماله ، ومن باع شيئاً مدحه وذم المال الذى أخـذ ، والله عـز وجل يقول : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ.. (٨٥)﴾ [الأعراف]

٢٠ - أن يشعر نحو المسلمين بولاية يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويأتمر بأمرهم فى ذلك:

قال الله - عز وجل - فى آية التوبة (٧١): ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾ [التوبة] تصريح بأن الله سيرحم هؤلآء ، ولا شك أن الصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله مما يدخل فى الأمر بالمعروف ، وإنما خصت هذه الثلاثة بالذكر لأهميتها ، فكيف يرحم الله تارك الصلاة وهي عماد الدين ، ومانع الزكاة وهو المضيع لحقّ الله فيها العائد على عباده المساكين، والعاصى لله ورسوله !

ولا شك أن للولاية مقتضى ذكره ربنا - عز وجل - فى هذه الآية وفقد مقتضاها من الشائع فى زماننا ، فقد أهملها الناس إلى درجة أنك تسمع من يقول لك إذا وجَّهته إلى خير: ما لك شأن بى ، حتى ولاية الدم صارت مفتقدة ، وصرنا نرى الإخوة متفرقين ، والأبناء عاقين والآباء مُضيعين لأبنائهم ، وعودة مقتضى الولاية دليل صدق على أننا نرجو رحمة الله - عز وجل.

www.ibtesamh.com/vb

٢١ - أن يبدأ الأمور المهمة ببسم الله الرحمن الرحيم:

أول الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وفى الحديث « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أقطع »[١] وفى رواية: أجزم ، وفى ثالثة : أبتر ، ومعنى الثلاثة أنه لا خير فيه ولا بركة ، وبالتالى فلا رحمة ذكرت الرحمة فى البسملة ، وروايات متعددة وردت إلينا عنه ﷺ أنه لم يترك البسملة وقال للغلام: « سَمّ الله ، وكل بيمينك وكل مما يليك » [٢].

وسمّى على طعام جابر ، فكفى الناس من بركته ﷺ ومن رحمة الله به وبأمته وفى آية هود (٤١) يقول الله - عز وجل -: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١)﴾ [هود] فانظر كيف جاءت الرحمة فى سياق اسم الله عز وجل ، فباسمه عز وجل جرت السفينة التى نحن من ذرية من حمل الله - عز وجل - مع نوح ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾ [الإسراء] وباسمه - عز وجل - رست ، ووصلت آمنة واستقرت من أجل ذلك رحم الله من سمّى ، وهو معتقد أن الله لايضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

٢٢ - أن يكون من الشاكرين:

والدليل على أن الشكر من ضروريات الشروط التى يجب أن تتوفر

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٨٩٤) وابن حبان فى صحيحه (١) والبزار فى مسنده (٧٨٩٨) والنسائى فى السنن الكبرى (١٠٢٥٥) عن أبى هريرة.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٣٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٣٨٨).

www.ibtesamh.com/vb

فى كل راج رحمة ربه - عز وجل - قول الله تبارك وتعالى فى آية إبراهيم (٧): ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾ [إبراهيم]

وقوله تعالى فى آيتى آل عمران: ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران] و ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ.. (١٤٥)﴾ [آل عمران] ، وقوله تعالى فى آية سبأ: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)﴾ [سبأ]

والله تعالى بلا شك يزيد من رحمته فكل نعمة إليه ، وكل فضل راجع إليه ، وقد رحم الله أهل سبأ ، إذ جعل لهم من رحمته جنتين عن يمين وشمال ، وقال لهم: ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)﴾ [سبأ] فأكلوا ولم يشكروا فبدَّل جنَّتيهم بجنتين ذواتى أكل خمْط وأثل وشيء من سدر قليل ، ثم قال عز وجل : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)﴾ [سبأ] « والشكر يكون بالقلب توحيداً وإخلاصاً ويكون بالأيدى عطاء للمحتاجين من عباد الله ، وباللسان قولاً بيناً دالاً على الشكر ، وما أكثر الذين يتوهمون أنهم يشكرون الله وذلك باللسان فقط ، يقول لك أنا دائماً أقول الحمد لله ،والشكر لله ، ثم يُقبّل لك كفَّيه !

٢٣ - أنْ يُقِرَّ بنعمة الله - تعالى - ويتحدَّث بها:

والدليل على ذلك قوله - عز من قائل: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل] قال موسى - عليه السلام: ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)﴾ [القصص]

www.ibtesamh.com/vb

وكم من مَوَاطِن رحمة فى حياة كل إنسان ، قل من يذكرها ، وكثر مَنْ يتناساها وينساها ، فمن الناس مَنْ إذا حدَّثك أحسسك بأنه غير ذى نعمة منذ جاء إلى هذه الدنيا ، يصف لك قسوة أبيه وجحود أمه ، وفرار إخوته ، وظلم عمه وعمته وخاله وخالته ، وتأمل تلك المفارقة بين هذا وبين زيد بن حارثة - رضى الله عنه - الذى قال الله تعالى فيه: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ.. (٣٧)﴾ [الأحزاب] ونحن فى كل صلاة نقول: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة]

والذين أنعم الله عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون وحَسُن أولئك رفيقاً ، ولا شك أن هؤلاء جميعاً اختبروا فصبروا ، وأُوذوا فصبروا وما قال واحد منهم إلاّ قد أنعم الله علىّ.

٢٤ - أن يكون من الصالحين:

والدليل على أن الصلاح شرط فى صدق رجاء رحمة الله عز وجل - قول الله - تعالى فى سورة الأنبياء الآيتين (٨٥ - ٨٦): ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)﴾ [الأنبياء]

ولن يكون المرءُ صالحاً إلاّ إذا كان صادقاً ، براً ، رحيماً عابداً، كان إسماعيل - عليه السلام - يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضياً ، وهو الذبيح الذى قال لأبيه: ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ [الصافات] ، ورفع معه القواعد ، وكان إدريس صدّيقاً

www.ibtesamh.com/vb

نبياً ، ورفعه الله مكاناً علياً ، وكان ذو الكفل يكفل غيره ، ولهذا سُمّى ذا الكفل ، وقد قال شعيب لموسى - عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾ [القصص] والصلاح نقيض الفساد ، والفساد يُعرّض صاحبه لغضب الله - تعالى - وسخطه وعذابه ، والصلاح يُعرّض صاحبه لرحمة الله ورضوانه ، وليس من الصلاح أن يفهم المسلم أن الإسلام شكل وعبادة خالية من روح ؛ فهو يؤدى الشعائر فإن قضاها تولى ليفسد فى الأرض غليظ القلب خائناً للعهد ، فللعبادة روح لابد من اكتساب الفضائل منها . قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

٢٥ - أن يكون بارًّا بوالديه:

والدليل على أن الصادق فى رجاء رحمة الله - عز وجل - يجب أن يكون باراً بوالديه قول الله - تعالى - فى سورة الإسراء الآية (٢٤): ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] والراحمون يرحمهم الرحمن ، وقد سبق أن ذكرت حديث البخارى: « من لايَرْحم لايُرْحم » والوالدان أولى بالرحمة.

وقد جاء فى حديث الغار الذى رواه البخارى الذى دخله الثلاثة فأطبقت صخرة فسدَّت عليهم بابه ، فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم أن أحدهم كان له والدان ، وكان قد تعوَّد أن يروح عليهما

www.ibtesamh.com/vb

قبل غيرهـما يحلب لهما ، ويسقيهما ، وشغله شيء ذات يوم فتأخر عنهما ، فلما ذهب إليهما وجدهما نائمين ، فظل واقفاً واللبن فى كفه حتى طلع النهار ، خشى أن يوقظهما فيرهقهما ، وخشى أن ينصرف إلى أهله زوجته وأولاده ، فيستيقظا ولا يجداه ، فيغضبا ، فظل هكذا حتى طلع النهار وقال: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فاصرف عنا ما نحن فيه ، فانكشفت[1] وتلك من رحمة الله فى الدنيا، فانظر كيف كان بر الوالدين سبيلاً إليها ، والآخرة خير وأبقى.

٢٦ - صلة الأرحام وغيرهم:

وفى سورة الإسراء يقول الله - عز وجل - فى الآيات (٢٦- ٢٨):

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨)﴾ [الإسراء]

وعد الحق - تعالى - عبده الذى يؤتى ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، غير مبذر ، إن اعتراه شيء من الابتلاء فلم يقدر على أداء ما عليه من حق لهم برحمة آتية من عند ربه يرجوها وهو أهلٌ لهذا الرجاء ، حيث إنه واصل أرحامه عطوف على المحتاجين من المساكين وأبناء السبيل وكلمة (ترجوها) الهاء فيه تعود على الرحمة والفاعل المستتر فى (ترجو) المُقدَّر بـ «أنت» أى : يا واصل

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧٤) والبيهقى فى السنن الكبرى (١١٩٧٤) عن عبد الله ابن عمر.

www.ibtesamh.com/vb

الأرحام ، ويا عطوفاً على المساكين وأبناء السبيل إنك ترجو رحمة ربك وهى آتية لأنك أهل لهذا الرجاء ، فأنت صادق فى طلبها لأنك تُعطَى منها ، فقل لهم قولاً ميسوراً منه إذا جاء خير الله أوصلته إليكم كما ذكر ابن كثير فى تفسيره وغيره ، فالصادق فى رجاء رحمة ربه هو ذلك الواصل لأرحامه وغيرهم من المحتاجين.

٢٧ - أن يكون مع رجائه رحمة ربه خائفاً من عذابه :

والدليل على وجوب اجتماع الرجاء والخوف قول الله - تعالى فى سورة الإسراء الآية (٥٧): ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾ [الإسراء]

قيل: نزلت فى قوم من العرب كانوا يعبدون الجن وقد أسلمت الجن ، والإنس لا يدرون ، فهم يدعون من دون الله من يسارعون فى طاعته ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، أى يعبدون من دون الله مَنْ يعبد الله ويرجوه ويخافه.

و (يدعون) أى: يدعونهم من دون الله ، وقيل : نزلت فى مريم وعيسى وعزير ، والشاهد اجتماع الرجاء والخوف معاً ؛ لأن فى هذين ضبطاً للنفس وتحقيقاً للمعادلة ، فإن الرجاء وحده قد يؤدى إلى الغرور والتقصير ، والخوف وحده يؤدى إلى الإحباط واليأس ، فكلما اجتمعا معاً توازن العبد ، واتزن وعالج خوفه رجاؤه ، وعالج رجاءه خوفه ، وهكذا وليس معنى الخوف إحداث

www.ibtesamh.com/vb

رعب فى الصدور ، أو كما يقول مَنْ لا عِلْمَ عنده ترهيب الناس وتخويفهم من الدين.

٢٨ - أن يعتزل الظالمين المعتدين:

والراجى رحمة ربه - عز وجل - يعتزل الظالمين المعتدين ، قال عز وجلِ فى سورة مريم الآيتين (٤٩ ، ٥٠): ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾ [مريم]

ولهم أى لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، لما اعتزل إبراهيم قومه ، وما يعبدون من دون الله ، وهب الله له إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، ووهب لهم - عز وجل - من رحمته ما وهب ، وحَذْف المفعول يدل على عظيم ما وهبهم الله من رحمته الواسعة ، وجعل لهم لسانَ ثناء ومدح فى كل الأديان.

إن بعض الناس فى زماننا يتصور أنه إذا ترك الظالمين ضاع ، وإذا ترك الحرام والتزم الحلال مات جوعاً ، صار الناس يقولون جهاراً نهاراً إن الذى يتمسك بالدين - كما أنزل - (على حد تعبيرهم) ضاع ، وهذا وَهْم باطل ؛ فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ.. (٣)﴾ [الطلاق]

فصدق الله ، وكذب كل مدّع.

٢٩ - أن يكون ممن يسلكون سبيل الفلاح:

والراجى رحمة ربه يجب أن يكون سالكاً سلوك المفلحين ، فهو

www.ibtesamh.com/vb

مصل خاشع فى صلاته ، مُعرض عن اللغو ، فاعل للزكاة ، حافظ لفرْجه إلاّ على زوجته أو ما ملكت يمينه ، راع لأمانته وعهده ، محافظ على صلاته ، فهو وارث للفردوس ، ومن ورث الفردوس فقد رحمه الله - عز وجل.

قال تعالى فى سورة المؤمنين الآيات (١ - ١١): ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾ [المؤمنون]

وهذه الأمور من عزم الأمور التى بنى عليها الدين ، وكما قلت: إن مَنْ كانت الجنة خاتمته وعاقبته كان فى رحمة الله - عز وجل - فقد يأتى التعبير بالرحمة صراحة باللفظ ، وقد يأتى بالمقتضى ، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ.. (٩)﴾ [غافر]

٣٠ - أن يعفو عمَّن أساء إليه:

والراجى رحمة ربه - عز وجل - هو الذى يدخل من هذا الباب الذى يحبه الله - تعالى - وهو باب الله ، العفو قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور]

www.ibtesamh.com/vb

وقد نزلت فى الصّديق - رضى الله عنه - حين أقسم أن يمنع قريباً له هو مسطح ؛ لأنه خاض فى الإفك ، فلما نزلت ، قال - رضى الله عنه : بلى . أحب أن يغفر الله لى ، وأعاد عليه كل ما كان يعطيه.

إن معضلات من المشكلات فى حياتنا يقضى عليها الصدق فى رجاء رحمة الله ؛ لأنها أعظم من الانتقام والتشفّى ، وهى رحمة فى الدنيا والآخرة فطن لها مثل أبى بكر ، وغفل عنها الكثيرون الذين إذا ذكّرتهم بمثل هذه الآية قالوا : إى نعم ولكن ، وكم سدت «لكن» أبواباً مفتحة ومنعت خيراً كثيراً ، ويقصدون بما بعد «لكن» ما يشعرون به من ظلم ، وأنهم بشر ، وأنهم من لحم ودم ، وأنهم لايطيقون ، ونحو ذلك ، ورحمة الله سبحانه أعم وأوسع ، وأرحب وأشفى لصدور تتصور العذاب الأليم الذى لا تطيقه إنْ لم تتخذ سبيلاً إلى رحمة الله الواسعة.

٣١ - طاعة الرسول:

ومن سبل الوصول الموصّلة إلى رحمة الله - تعالى - طاعة الرسول ﷺ وهى من طاعة الله - عز وجل - قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ.. (٨٠)﴾ [النساء]

والدليل على ذلك قول الله ربنا فى سورة النور الآية (٥٦): ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)﴾ [النور] وقد سبق أن ذكرت الصلاة والزكاة ، وأنهما من شروط صدق الراجى

www.ibtesamh.com/vb

رحمة ربه - عز وجل - وضم إليهما هنا طاعة الرسول وقد رأيناها فى الصحابة الأبرار الذين قالوا له - ﷺ - « لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخُضته لخضناه معك »[1]. ورأيناها فى حديث البخارى حيث قال أبو هريرة: « فلما لم يكن من طاعته بُدّ » أى ذهب فأحضر أصحاب الصُّفة ، وسقاهم بقدح المصطفى المختار ، ثم شرب حتى لم يجد للبن مسلكاً وشرب - ﷺ - الفضلة ، ورأيناها فى حديث حذيفة بن اليمان: « فلما سمّانى رسول الله - ﷺ - ولم يكن من طاعته بُدّ » أى ذهب برغم شدة الخوف والجوع والبرد فأتاه بخبر القوم يوم الأحزاب ، فما عسى أن يفعل الذين يرفضون سُنته ويسلكون كل مسلك من أجل إضعاف صحيحها ، والحكم على بعض الأحاديث الصحيحة بأنها خرافة.

٣٢ - أن يكون متواضعاً:

والدليل على أن التواضع خُلق الراجى رحمة ربه قول الله - تعالى - فى سورة الفرقان الآية (٦٣): ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

ومن قال قولاً سلاماً كان التواضع خير مُعين له على ذلك ؛ لأن المتكبر فى الغالب لايعرف السلام فى الفعل فضلاً عن القول ، أما المتواضع فهو مهيأ نفسياً لقول السلام خصوصاً مع الجاهلين ؛ لأن

(١) كان ذلك فى غزوة بدر. أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٣٤).

www.ibtesamh.com/vb

من شأن الجاهلين البطش والعدوان ، وقد قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾ [الأعراف] وقد يكون الجاهل فى طريق الوصول إلى المعلم وعلى من يعلمه أن يصبر عليه ، وهذا درس للمعلمين والمدرسين الذين يريدون طلابهم عباقرة من أول درس ، ومن أول جملة ، وما أكثر الذين يقولون إذا سمعوا خطأ من جاهل: جاهل ، غبى ، ونحو ذلك ، وليس هذا من خلق المسلمين الراجين رحمة الله - عز وجل - وقد كان - ﷺ - أوسع الناس صدراً وأرفعهم بالناس ، يصبر على الجاهل ، ويرحم الضعيف ويرفق بحديث العهد بالدين ، وقد قال الله تعالى له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ.. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

٣٣ - الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً:

ومن سُبل الوصول إلى رحمة الله - تعالى - أن يبيت الراجى ساجداً قائماً لله ، قال تعالى فى آية الفرقان (٦٤): ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)﴾ [الفرقان]

وأقول : إنَّ المكلَّف إن نام بعد صلاة العشاء واحتسب عند الله نومته ، ليستعد لعمل جديد كان نومه عبادة ، أما الذى يستطيع السهر ولو جزءاً من الليل إنما يقوم الليل ولو بصلاة ركعتين ، قال تعالى:

www.ibtesamh.com/vb

﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ.. (٩)﴾ [الزمر]

٣٤ - ويقول الله - تعالى فى آية الفرقان (٦٠): ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٠)﴾ [الفرقان] وقد سبق الحديث عن الدعاء ومستنده فى ذلك.

٣٥ - أن يكون معتدلاً فى الإنفاق:

ويقول تعالى فى آية الفرقان (٦٧): ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان]

٣٦ - وأن يجتنب كبائر الذنوب:

وفى آية الفرقان (٦٨) يقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)﴾ [الفرقان] وقد سُئل - ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ فقال: أن تجعل لله نداً وقد خلقك ، قال السائل: ثم أى؟

قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك . قال: ثم أى؟

قال: أن تزنى بجليلة جارك (١).

وليس معناه أن الزنا بغير حليلة (امرأة) الجار مباح ، لكنه أشد حرمة.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٨٢ ، ٣١٨٣) وصححه. وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٦٢٥٨).

www.ibtesamh.com/vb

٣٧ - وألاَّ يشهد الزور :

والراجى رحمة ربه ، وهو من عباد الرحمن لا يشهد الزور ، قال تعالى فى آية الفرقان (٧٢): ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ.. (٧٢)﴾ [الفرقان]

وقد كان - ﷺ - مضطجعاً فجلس عند ذكرها ، لخطورتها حتى ود الصحابة أنه سكت إشفاقاً منهم عليه ، كيف يرجو رحمة ربه مَنْ يشهد الزور ، وهو كما قال الله تعالى : « وعباد الرحمن ... » إنه بشهادة الزور ينأى عن كونه من عباد الرحمن إلى ولى من أولياء الشيطان.

٣٨ - وإذا مروا باللغو مروا كراماً :

مرور الكرام الذى صار مثلاً فى كل شيء غير مُستوفٍ دون تحقيق وتدقيق وتَحرّ ، من صفات عباد الرحمن الذين يرجون رحمة الله إذا مروا باللغو ، قال تعالى فى آية الفرقان (٧٢): ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)﴾ [الفرقان]

فهم منزَّهون عن اللغو الذى لا خير فيه باحثون عن الجد ، ولا يعنى ذلك أنهم لا يمزحون وقد قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ.. (٢٢٥)﴾ [البقرة] فهناك يمين اللغو التى من رحمة الله الواسعة أنه لا يؤاخذ عليها ، ومثالها قول الرجل فى بيته: لا و الله ، ولا بالله، ونحو ذلك وقد كان - ﷺ - يمزح ولا يقول إلاّ حقاً ، لكن

www.ibtesamh.com/vb

اللغو الذى ينأى راجى رحمة ربه عنه هو ذلك الكلام الفارغ فى كل شيء ، العارى عن الصحة والسند والمنفعة ، فلا هو بعلم ولا هو إثراء لوجدان ، ولا هو من قبيل الأدب النافع ، إنما هو ثرثرة فارغة ، والراجى رحمة ربه يبحث عن الحكمة ، واللغو ليس فيه شيء من الحكمة.

٣٩ - الذين إذا ذُكّروا تذكَّروا :

خف ألم سفيان - أمير المؤمنين - فى الحديث حين سأل حماداً وهو مريض: أترى الله يغفر لمثلى؟ فقال له حماد: لو خيرتُ بين أن يحاسبنى الله - تعالى - أو أن يحاسبنى والداى لاخترت أن يحاسبنى الله تعالى: لأن الله - تعالى - أرحم بى من أبوى.

كلمات مستقاة من حديث رسول الله - ﷺ - الذى رواه البخارى: « لله أرحم بعباده من هذه بولدها »[(1)].

والله - عز وجل - يقول فى آية الفرقان (٧٣) ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣)﴾ [الفرقان]

أى أن عباد الرحمن الذين يرجون رحمة الله إذا ذُكّروا تذكَّروا ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)﴾ [الأعراف] ، وقالت مريم حين تمثَّل لها الملَك بشراً سوياً : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨)﴾ [مريم] أى إن كنت تقياً نفعتك

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٩٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٧١٥٤) من حديث عمر ابن الخطاب رضى الله عنه.

www.ibtesamh.com/vb

هذه الاستعانة بالرحمن ، يرجو رحمة ربه مَنْ إذا ذكر بالله بكى قلبه فأحجم عن الشر ، ولا يرجوها من لم يزده قولك له اتق الله إلا عزَّة بالإثم.

٤٠ - أن يُبدل بعد السوء حُسْناً:

والراجي رحمة ربه هو الذى إذا فعل سوءاً فعل به حسناً ، والدليل على أن ذلك من سبل الوصول إلى رحمة الله - عز وجل - ، قوله سبحانه فى آية النمل (١١): ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١)﴾ [النمل]

بعض الناس يتوهم أن الذى تاب يبدل الله سيئاته حسنات ، هكذا دون أن يعمل صالحاً بعد توبته ، وقد قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠)﴾ [الفرقان] وقد ذهب السلف جميعاً إلى أن التائب عليه أن يعمل أعمالاً صالحة يبدل الله - تعالى - بها سيئاته حسنات، وقد ذكر العلماء أن مَنْ زنى فتاب تزوج ، ومن سرق فتاب عمل وتصدق ، ومن أهان المصحف فتاب زاده توقيراً وتقبيلاً، وهكذا قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)﴾ [هود]

٤١ - يدنين عليهنَّ من جلابيبهنَّ:

ومما هو خاص بالمرأة ستر العورة والاحتشام ، قال تعالى فى آية الأحزاب (٥٩): ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ

www.ibtesamh.com/vb

جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩)﴾ [الأحزاب]

إن مَنْ ترجو رحمة ربها تستر عورتها ، وتحتشم وإدناء الجلابيب لأسفل ، فلا تنكشف فيها ساق والتى تعرّض نفسها لأذى الفاجر لاترجو رحمة الله ، وإن ادعت ، وقد بات الكلام فى عورة المرأة من الجديد القديم ، ولا يحتاج إلى جدال وحرب ،فعورة الرجل ما بين سرته وركبته وجميع بدن المرأة عورة ما عدا وجهها وكفيها ، اتفق الأئمة على ذلك ، ولا أدرى إذا أثير هذا الحديث قامت الدنيا ولم تقعد كأنه لما يفتح من قبل ، إن السبيل إلى رحمة الله بها وبوليها والداً كان أو أخاً أو زوجاً هو السبيل إلى صونها من الذى فى قلبه مرض، فعلى مَنْ تخرج كاسية عارية ومَنْ ترتدى الضيق تظن أن الزمن قد تغير، وأن هذا تطور فلتتق الله ولتعلم أن ذلك سبيل إلى التردى.

٤٢ - فلولا أنه كان من المسبحين:

يقول الله - تعالى - فى سورة الصافات الآيتين (١٤٣ - ١٤٤) فى قصة يونس - عليه السلام -:﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [يونس]

ومهم أن نعلم أن التسبيح من معالم الطريق إلى رحمة الله عز وجل ، والأهم أن نعلم أن التسبيح ليس معناه عدداً معيناً من قولنا: سبحان الله ، وإنما معناه الإقرار بكمال الله - تعالى - ونقص العبد

www.ibtesamh.com/vb

فما سبَّح الله ونزَّهه عن كل نقص لا يليق بذاته المقدسة ، وهو يرى أنه عديم الحـظ ، وأن الله كتـب عليه الشقاء ، وأنه صاحب حظ أكثر كما يقول الناس فى دول الخليج ، ولا ذو حظ نحس كما تقول فى مصر ، إنما يسبح الله تعالى مَنْ ألقى باللوم على نفسه وهو مؤمن بأن الله عز وجـل ليس بظلاَّم للعبيد ، وقد ذكر لنا ربنا - تعالى - قول يونـس فـى سـورة الأنبياء : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء] ما قـال يونس فى بطن الحوت: سبـحان الله، سبحان الله، سبـحان الله ألف مرة ، وإنما سبح الله بنسبة الكمال إليه تعالى، والنقص إلى نفسه ، فذلك التسبيح الحق الذى هو من شروط راجى رحمة ربه.

٤٣ - أن يكون مستقيماً على الطاعة:

ويقول الله - عز وجل - فى سورة فصلت الآيات (٣٠ - ٣٢): ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾ [فصلت]

وقدقال النبى - ﷺ -: « قل آمنتُ بالله تعالى ثم استقم »[1]. ومن كلام العلماء : عرفتَ فالزم.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٤٥٤ ، ١٥٤٥٥) والطيالسى فى مسنده (١٣٢٧) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى.

www.ibtesamh.com/vb

قد ينحرف الإنسان وتزل قدمه ، لكنه يتوب عن قريب ، فما يُخِلّ ذلك باستقامته ، ولنا كتاب عنوانه (المعهود عن سيد الوجود محمد ﷺ) ذكرت فيه الفرق بين المعهود والمفقود ، وأن النبى - ﷺ - ماترك خيراً فعله أبداً وأنه كان أكرم الناس وأجود الناس ، وكان أكرم ما يكون فى رمضان ، كان أسبق بالخير من الريح المرسلة واليوم تجد من مآسينا أننا نفعل الخير صدقة وحسب مزاجنا ، إن اعتدل عملنا الخير وإن تعكر ذهبنا كل مذهب ، تجد الذى يصلى يوماً ويترك الصلاة شهراً ، وغير ذلك مما يجب أن نعلّمه أنفسنا والناس، فإن الاستقامة أهم معالم الطريق الموصّلة إلى رحمة الله ، وقد روى البخارى : أحب العمل إلى الله أدومه[1].

٤٤ - أن ينهى نفسه عن هواها:

وفى سورة النازعات الآيتين (٤٠- ٤١) يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾ [النازعات]

نهى النفس: أى نفسه

راجى رحمة ربه الصادق فى رجائه دائماً ينهى نفسه عن هواها ، والهوى تيار جارف ، مَنْ أطاع هوى نفسه أطفأ نور عقله.

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصى الهوى يزداد تنويرا

(١) ترجم له البخارى باباً (باب أحب الدين إلى الله أدومه) وذكر فيه حديث عائشة (٤٣): وكان أحب الدين إليه مادام عليه صاحبه ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٦٤).

www.ibtesamh.com/vb

ولا شك أن هوى النفس يتمثل فى النوم والكسل والتواكل والتقليد ، وعدم المشقة ، وكل ما من شأنه مخالفة الهوى ، والمرء قادر على ذلك بلا شك بدليل قول الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.. (٢٨٦)﴾ [البقرة] لكن الوهم كالإدمان ، دائماً يتوهم المتوغل فى الهوى أنه غير قادر على أن يخالف هوى نفسه ، فلينظر إلى قدرته على الصوم فى رمضان ، كيف يقدر على هواها ، ويمنعها الطعام والشراب والجماع فهلاً تعمم من ذلك الدوام على الطاعة والاستقامة على الهدى.

٤٥ - أن يكون من الأبرار:

والبر درجة عالية ، وهو اسم جامع لكل معانى الخير يرجو ربه من اجتهد فيه ، قال تعالى فى سورة المطففين الآية (١٨): ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨)﴾ [المطففين]

ومن صفات الأبرار أنهم يوفون بالنذر ، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، لايرجون منهم شكراً ولا جزاءاً : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)﴾ [الإنسان] قال الله تعالى: ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)﴾ [الإنسان] ومن لقاه الله ذلك فقد رحمه ، ومن صفات الأبرار أنهم ينفقون مما يحبون ، قال تعالى: ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ

www.ibtesamh.com/vb

حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ.. (٩٢)﴾ [آل عمران]

نسأل الله أن يجعلنا كأبى طلحة الذى تصدَّق على أقاربه بالبيرحاء أفضل ماله وكان بستاناً جميلاً به ماء عذب ، ومثل أبى الدحداح الذى تصدق بسببها ببستان كبير ، أخرج منه امرأته وأولاده ، فقالت له امرأته: ربح بيعك (١).

إن ربنا تعالى ولىٌّ ذلك والقادر عليه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، اللهم إنَّا نرجو رحمتك ونخشى عذابك.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٥٠٤) وابن حبان فى صحيحه (٧١٥٩) من حديث أنس بن مالك.

www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb

الفهـــرس

مقدمة ٥

الفصل الأول : رحمة الله بين الرجاء واليأس.............. ١١

رحمة الله بين الرجاء واليأس (ما أقرب رحمة الله)........ ١٣

رحمة الله بالأنبياء وغيرهم.............................. ١٧

مَنْ الاستفهامية ورحمة الله ١٩

رحمة الله بالمؤمن والكافر ٣٧

الفصل الثانى : مظاهر رحمة الله تعالى............ ٤٣

الكتب السماوية.................................... ٤٥

رسول الله - ﷺ - رحمة للعالمين..................... ٤٦

الأهل من رحمة الله.................................. ٤٧

الأخ الصالح من رحمة الله............................. ٤٨

الزواج من رحمة الله بعباده............................. ٤٩

الولد الرحيم....................................... ٥٠

التمكين فى الأرض من رحمة الله........................ ٥١

المطر من رحمة الله - عز وجل -........................ ٥٣

الليل والنهار من رحمة الله ٥٤

القوة من رحمة الله بعباده.............................. ٥٥

www.ibtesamh.com/vb

من رحمته ألاَّ يعجل العذاب..................	٥٥
من رحمة الله أنه لم يُملّك أحداً خزائن رحمته	٥٦
من رحمة الله تشريع العفو	٥٧
تحلَّة الأيمان من رحمة الله	٥٨
النجاة من رحمة الله	٥٩
صَوْن المال من رحمة الله	٦٠
ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت	٦١
من رحمته تعالى الأنعام والدواب..................	٦٢
ويمسك السماء أن تقع على الأرض..................	٦٣
من رحمة الله لين رسول الله........................	٦٤
من رحمة الله تقبيل الصبي.........................	٦٥
من رحمة الله أن ترفع الدابة حافرها عن ولدها	٦٦
من رحمة الله أن الذى لا يجد لا شيء عليه	٦٧
دعوة عباده إلى رحمة من رحمته....................	٦٨
من مظاهر رحمته تعالى عدم البسط فى الرزق لبعض عباده......	٦٩
لإيلاف قريش إيلافهم	٧٢
من مظاهر رحمته - عز وجل - الاختبار................	٧٤
ومن مظاهر رحمته عز وجل عَفوه عن كثير.............	٧٤
من رحمة الله عز وجل الاستثناء.....................	٧٥
الاستثناء من الأمر بالسوء..........................	٧٦

www.ibtesamh.com/vb

إلا المصلين........................ ٧٧

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ٧٨

من مظاهر رحمة الله عز وجل فقر بعض الكفار.................... ٧٩

الرحمة فى التشريع الإسلامي........................ ٨٣

قراءة القرآن لغير المتوضئ........................ ٨٦

قراءة ما تيسَّر من القرآن ٨٧

مَنْ سها سجد للسهو........................ ٨٨

التيمم عند وجود الماء مع الحاجة إليه........................ ٨٩

مظاهر رحمة الله تعالى فى التشريع الإسلامى أنه شرع لرحمته صلاةً ٩٠

الفصل الثالث : ظرفية الرحمة........................ ٩١

ظرفية الرحمة ٩٣

ما لك تبقى وجهك فى وجهى ؟........................ ٩٨

النهى بين الهدى والهوى........................ ١٠٩

وإما تُعرضنَّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك........................ ١٢٣

إنى أنا الغفور الرحيم. وعلاقته بظرفية الرحمة ١٢٨

الفصل الرابع : (السبيل إلى رحمة الله شروط الراجى رحمة ربه) ١٣٣

١ - التوحيد ١٣٥

٢ - اليقين أن الرحمة بيد الله وحده........................ ١٣٦

www.ibtesamh.com/vb

٣ - أن يكون راجياً إياها ١٣٧
٤ - أن يدعو بالرحمة ويترقبها........ ١٣٨
٥ - أن يعرف مستند الدعاء بالرحمة ١٤٢
٦ - أن يكون مهاجراً مجاهداً فى سبيل الله........ ١٤٣
٧ - أن يرجع إلى الصلاح........ ١٤٤
٨ - أن يكون تواباً........ ١٤٥
٩ - أن تكون توبته قريبة........ ١٤٦
١٠ - أن يكون من المستغفرين........ ١٤٦
١١ - أن يكون من الصابرين........ ١٤٧
١٢ - أن يكون من المصلحين المتقين........ ١٤٨
١٣ - ألاَّ يفرّق بين أحد من رسل الله........ ١٤٩
١٤ - ألاَّ ينحرف إلى الإثم........ ١٥٠
١٥ - أن ينجح فى الابتلاء ١٥١
١٦ - أن يستمع إلى القرآن الكريم وينصت........ ١٥٢
١٧ - أن يكون فى قلبه خير........ ١٥٣
١٨ - أن يتقرب إلى الله - عز وجل - بصدقة........ ١٥٤
١٩ - النصح لله ورسوله........ ١٥٥
٢٠ - أن يشعر نحو المسلمين بولاية يأمرهم بالمعروف وينهاهم ويأتمر بأمرهم فى ذلك ١٥٧
٢١ - أن يبدأ الأمور المهمة ببسم الله الرحمن الرحيم ١٥٨

www.ibtesamh.com/vb

٢٢ - أن يكون من الشاكرين ١٥٨
٢٣ - أن يُقر بنعمة الله -تعالى- ويتحدث بها............ ١٥٩
٢٤ - أن يكون من الصالحين......................... ١٦٠
٢٥ - أن يكون بارًّا بوالديه............................ ١٦١
٢٦ - صلة الأرحام وغيرهم............................ ١٦٢
٢٧ - أن يكون مع رجائه رحمة ربه خائفاً من عذابه....... ١٦٣
٢٨ - أن يعتزل الظالمين المعتدين......................... ١٦٤
٢٩ - أن يكون ممن يسلكون سبيل الفلاح.............. ١٦٤
٣٠ - أن يعفو عمَّن أساء إليه............................ ١٦٥
٣١ - طاعة الرسول ١٦٦
٣٢ - أن يكون متواضعاً.............................. ١٦٧
٣٣ - والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً.................. ١٦٨
٣٤ - والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها
كان غراماً ١٦٩
٣٥ - أن يكون معتدلاً فى الإنفاق ١٦٩
٣٦ - أن يجتنب كبائر الذنوب........................... ١٦٩
٣٧ - ألاَّ يشهد الزور............................... ١٧٠
٣٨ - إذا مروا باللغو مروا كراماً......................... ١٧٠
٣٩ - الذين إذا ذُكّروا تذكَّروا.......................... ١٧١
٤٠ - أن يبدّل بعد السوء حُسْناً.......................... ١٧٢

www.ibtesamh.com/vb

٤١ - يُدنين عليهن من جلابيبهن............ ١٧٢
٤٢ - فلولا أنه كان من المسبّحين............ ١٧٣
٤٣ - أن يكون مستقيماً على الطاعة............ ١٧٤
٤٤ - أن ينهى نفسه عن هواها ١٧٥
٤٥ - أن يكون من الأبرار............ ١٧٦

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

رحمة الله بين الرجاء واليأس / مبروك عطية
القاهرة : أخبار اليوم ، قطاع الثقافة ، ٢٠١١ .
ص ؛ سم .
تدمك ٢ ١٥٣٢ ٠٨ ٩٧٧
١ - الوعظ والإرشاد
أ - العنوان
٢١٣

رقم الإيداع
١٣٤٩٨ / ٢٠١١
الترقيم الدولى
977-08-1532-2

www.ibtesamh.com/vb

التحويل لصفحات
فردية والمعالجة
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesamh.com/vb